كلية الحقوق

النظرية الداروينية

فى تأصيل فكرة العدوان

الدكتورة

دينا خالد محمد حفني

dinahifny@gmail.com

الملخص

تناول البحث موضوع "النظرية الداروينية فى تأصيل فكرة العدوان " وتبين لنا أن نظرية التطور هى بكل تأكيد أهم الابتكارات العلمية المفردة فى القرن التاسع عشر، وأن النموذج التطورى للفكر الأرثروبيولوجى والسيسيولوجى كان من أهم العوامل التى ساعدت على النهوض بفكرة العدوان، كما أن هناك بوجه عام اتجاهًا لإدماج الحرب فى جملة ظواهر الخلاف والصراع، واعتبارها حالة خاصة للصراع العام، كما أن الداروينية ولأسباب غير خلقية قد شجعت تشجيعًا قويًا الفكرة التى نمت بالفعل فى عصر السياسة الواقعية والإمبرايلية التى اتخذت شعارًا لها أن الحرب قانون العالم الاجتماعى.

ولقد أدخلت هذه النظرية الزائفة بعض الاستعارات من نظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى وأن البقاء للأصلح.

Abstract:

The research addressed the topic of "Darwin's Theory in the Foundation of the Idea of Aggression." It revealed that the theory of evolution is undoubtedly the most important single scientific innovation of the nineteenth century, and that the evolutionary model of anthropological and sociological thought was one of the most important factors that contributed to the rise of the idea of aggression. Furthermore, there was a general trend toward integrating war into the broader phenomena of disagreement and conflict, viewing it as a special case of general conflict. Furthermore, for reasons other than morality, Darwinism strongly encouraged the idea that actually grew in the era of realpolitik and imperialism, which adopted as its slogan that war is the law of the social world. This false theory incorporated some borrowings from Darwin's theory of natural selection and the survival of the fittest.

مقدمة:

اتفق المؤرخون على أن أهم خطرين كانا يهددان حياة الإنسان ووجوده في المجتمعات القديمة هما انتشار الوباء وقيام الحروب وإذا أمكن للتقدم العلمي في مجال الطب الإنساني الحديث أن يسيطر على انتشار معظم أنواع الأوبئة ويقضي عليها إلا أنه فشل حتى الآن في التغلب على أسباب العدوان وتبرير قيام الحروب لدرجة أن بعض المؤرخين المتشائمين كانوا يرددون أن الحرب حتمية على بني الإنسان تفرضها عليهم قوى خفية أشبه بقوى القدر وأن حماية الله هي وحدها القادرة على وقفها، فيما سلم البعض الآخر بأن تعاقب الحرب والسلام هي ظاهرة أبدية لا يمكن إنكارها بل أنها أمر محتم كتعاقب الليل والنهار.

وإذا كانت أعمال الحرب والعدوان هي ظواهر طبيعية أبدية حتمية فهذا يعني أنها لا يمكن أن تخضع لأي تحليل أو تأصيل وأنه ينبغي التسليم بها والتآلف والتعايش معها دون أن نملك القدرة على منعها أو الحد منها، فإذا كانت الحروب لا تخضع لأي قانون اجتماعي وإذا كان محركها الوحيد هو شهوات الحكام والشعوب فلن يكون هناك أي أمل بالتنبؤ بها علمياً وهذا يعني أن الإنسانية يجب أن تخضع لها دائماً بشكل أعمى دون أن تفهمها وسيكون من الواجب في هذه الحالة التنازل عنا لتكون دراستها حكراً على الأدب والتاريخ الأسطوري والاقتصار على دراستها من النواحي الذرائعية فحسب.. وهذا ما لا يمكن بطبيعة الحال قبوله أو التسليم به.

هذا وقد تعددت الآراء وتباينت النظريات التي عنيت بتأصيل ظاهرة العدوان في العلاقات الدولية المعاصرة والتي اهتمت بمحاولة الإجابة على تساؤل لماذا تنشب الحروب؟ وما الذي يدفع الدول لارتكاب فعل العدوان بحق غيرها من الدول؟

حيث رد البعض فعل العدوان إلى أسباب نفسية أو سيكولوجية أو أسباب سياسية أو اقتصادية أو سوسيولوجية، فيما يرى البعض وجود نظريان ترد الصارع الدولي والعدوان إلى طبيعة الإنسان (على اعتبار أنه متغطرس وبه مس من جنون القوة وأحمق وشرير).

وأخرى تعلقه على شماعة الدولة (رأسمالية ودكتاتورية).. وثالثة تؤكد على التأثير الخبيث للنظام الدولي الفوضوي[1].

فيما يرى الأستاذ Quincy Wright أن الأسباب الدافعة إلى الصراعات والعدوان والحروب الدولية قد ترجع إلى أي من العوامل التالية: الاتجاه إلى السيطرة أو التوسع، نظم المحالفات الدولية

---

(1) **Robert Gilpin. War and Change in World Politics Cambridge, England: Canbridge University Press, 1981 pp. 227-229**

بما تتضمنه من مضاعفات أمنية وحساسيات سياسية، ما تثيره مشكلات التسلح من عقد ومظاهر عداء، ما تقوم به الجماعات والقوى والمصالح المرتبطة بصناعات الأسلحة، عدم الاستقرار في آلية عمل وتكوين النظام الدولي، التباين في توزيع السكان والموارد بين دول العالم، التعصب القومي والعنصري، الصراع من أجل الوجود والمنافسات بين الدول الاستعمارية، تناقص المصالح التجارية والاقتصادية، دور الحروب في زيادة التضامن الوطني الداخلي، والفشل في ضبط النفس وسيطرة الشعور الجماعي بالذات. (١)

ووفقاً لرأي الأستاذ Quincy Wright، فإن أي من هذه الأسباب كاف لوحده كدافع لارتكاب العدوان ونشوب الحروب بين الدول(٢).

وأما Leopol Kohr فقد أشار في مؤلفه – انهيار الأمم – إلى وجود تسع نظريات تحاول تفسير ظاهرة الحرب والعدوان في العلاقات الدولية، وقد نعت Kohr من هذه النظريات بأنها – نظريات وهمية – أي أنها لا تقوم على أسس علمية منطقية في التحليل والتفسير وهي ثلاث نظريات:

– نظرية الألوهة عند البدائيين الذي يعتقدون أن كل نكبة – ومن بينها الحرب – تستمد جذورها من القوى فوق البشرية، ويمكن إبطال وتهدئة غضبها بتقديم الضحايا والقرابين وخاصة الضحايا البشرية.

– النظرية الإحيائية Animiste التي تعتبر أن آلام المجتمع ناتجة عن عمل الأرواح الخبيثة، هذه الأرواح المتجسدة مثلا في صورة ساحرات شريرات يجب القضاء عليهن إذا شئنا أن نتحاشى الشر الذي هن قادرات على فعله.

– النظرية الكونية Cosmique التي تعتبر أن الأمراض الوبائية والمجاعات

والحروب تؤد إلى ظاهرات علوية كانتقال النجم المذنب وخسوف القمر وكسوف الشمس والشفق القطبي الشمالي وغيرها.

وأما النظريات الست العقلية والتي يسميها Kohr العلل الثانية Causes Seconds فهي تشمل:

---

(1) **(Quincy Wright: Analysis of the Causes of war, in Richard Falk & Samuel Mendiovitz, (eds), Toward A Theory of war Prevention, (world LawFund, New york), 1966. p. 12.**

(2) **Ibid.**

- النظرية الاقتصادية الماركسية التي تعتبر أن الحروب هي نتيجة مقتضيات النمو الرأسمالي إما بحثاً عن أسواق جديدة، وإما من باب الحاجة للقضاء على الثروات التي تهدد بإبطاء وتيرة الإنتاج.
- النظرية السيكولوجية التي تعتبر أن الحرب وباقي الكوارث الاجتماعية قد تنتج عن الإحساس بعدم الإشباع الفردي.
- النظرية الشخصية Personnelle التي تنسب العدوان إلى العمل المشؤوم لشخصيات شريرة ومريضة مثل هتلر وموسوليني..
- النظرية الأيديولوجية والتي تنسب العدوان والحروب إلى الأيديولوجية التي تدافع منهجيا عن العنف والفتوحات والقتال والحقد.
- النظرية الثقافية التي ترد الحروب إلى التقاليد الاجتماعية الثقافية Culturelles Socio مثل النزعة العسكرية البروسية والنزعة الاستعمارية البريطانية.
- النظرية القومية أو الاجتماعية وهي تعتبر أن الاحروب سببها بشكل خاص الأصول العدوانية مثل أهالى إسبرطة أو البروسيين[1].

---

(1) راجع في هذا:

فاوستو انطونييني – عنف الإنسان أو العدوانية الجماعية – ترجمة نخلة فريفر – منشورات معهد الإنماء العربي – بيروت – لبنان – ١٩٨٩ – ص ١٣٧

كما ظهرت نظريات أخرى تتبنى تقسيمات مختلفة لتأصيل وتبرير ظاهرة العدوان وما يسبقه من صراع دولى[١].

وما يهم الباحثة فى نطاق البحث هى النظرية الداروينية الاجتماعية الدولية كتأصيل لفكرة العدوان.

أولاً: إشكالية البحث:

إن العدوان من أكثر المصطلحات القانونية الدولية شيوعاً واستخداماً في وقتنا الراهن فلا يكاد يخلو يوم من اتهامات تتبادلها الدول المختلفة تزعم فيها تعرضها لأعمال عدوانية وتهدد بالرد والانتقام.

ونظراً لكثرة تداول هذا المصطلح وشيوع استخدامه فقد جاء هذا البحث لمحاولة تحليله وتأصيله وبيان الأسباب والدوافع التي تؤدي إليه، وذلك وفقًا للنظرية الداروينية.

وإذا كان تجنب الحروب والنزاعات والحد من جرائم العدوان وردعها قبل ارتكابها وقمعها والعقاب عليها بعد حصولها وإتيانها هو الدافع الرئيسي لقيام التنظيم الدولي المعاصر فإن هذا يدفعني للتوقف قليلاً وتأمل مدى نجاح هذا التنظيم في تحقيق الهدف الأبرز الذي استدعى وجوده وقيامه.

إن المشكلة التي تعالجها هذه الدراسة إنما تنحصر في الإجابة على تساؤلات محددة كانت تفرض نفسها عليّ كلما أثيرت قضية العدوان وتتلخص هذه التساؤلات في الآنى:

لماذا يوجد العدوان في أسبابه ودوافعه وفقًا للنظرية الداروينية؟

وهل هناك بالفعل شعوب عدوانية وصفات قومية عدوانية جماعية تتسم بها بعض الأمم وأديان تعتمد على العنف والعدوان من اجل إعلاء رايتها؟

وهل يمكن التوصل بالفعل لتحديد سبب دقيق لانتشار الحروب والعدوان بين الدول وهل بالإمكان معالجة هذا السبب لينعم المجتمع الدولي بالأمن والسلام؟

---

(١) انظر في عرض هذه الآراء:

جرج كاشمان – لماذا تنشب الحرب؟ ترجمة د. أحمد حمدي محمود – منشمورات الهيئة المصرية العامة لكتاب – الجوء الأول – ١٩٩٦ – ص ١٣ وما بعدها.

د. منير بدوي – تحليل الصراع الدولي – بحث منشور ضمن كتاب – اتجاهات حديثة في علم السياسة – تحرير د. علي الدين هلال الدسوقي – د محمود إسماعيل محمد – إصدار المجلس الأعلى للجامعات – اللجنة العلمية للعلوم السياسية والإدارة العامة – القاهرة ١٩٩١ – ص ٣٤٧

د. إسماعيل صبري مقلد – نظريات السياسة الدولية – جامعة الكويت – الطبعة الأولى ١٩٨٢ – ص ٢٢١

وما هو تأصيل العدوان فى الفكر القانونى القديم، وكذلك الأديان؟

ثانياً – أسباب اختيار البحث:

توجد العديد من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع والبحث فيه، وتتلخص هذه الأسباب في:

١- غموض مصطلح العدوان وتداخله وتشابهه مع العديد من الأفعال الأخرى المباحة أو المجرمة وفقاً لقواعد القانون الدولي، وإساءة العديد من الدول والأنظمة لهذا الغموض والتداخل لارتكاب المزيد من جرائم العدوان.

٢- تنامي ظاهرة العنف وانتشار جرائم العدوان في المجتمع الدولي مع ملاحظة أن هذا العدوان قد اتسع نطاقه ليشمل كل مكان في هذا العالم، فلا تكاد تنجو منه قارة ولا إقليم أو بقعة جغرافية. فمن الأحداث الدامية في البلقان وأفغانستان وكشمير إلى استمرار جرائم العدوان في فلسطين والعراق واستمرار الاحتلال العدواني لأجزاء من أراضي سورية ولبنان... وحتى وصول دائرة العنف إلى نيويورك في قلب الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها.

٣- التنبيه لخطورة بعض الملفات التي تتضاءل أهميتها أو يقل التركيز عليها في ظل تنامي جرائم العدوان وفظاعة ما ترتكب خلاله من جرائم مروعة، ومحاولة تأصيلها وفق النظرية الداروينية.

ثالثاً: صعوبات البحث:

بالنسبة للصعوبات التي واجهتني أثناء إعداد هذا البحث فهي عديدة متنوعة، بعضها يتعلق بطبيعة الموضوع ذاته، وذلك لندرة الدراسات التى تربط ما بين العدوان والنظرية الداروينية.

رابعاً: منهج البحث:

نظراً لخصوصية موضوع البحث فقد اعتمدت على عدة مناهج علمية تتكامل فيما بينها بقصد إغناء موضوع البحث ومحاولة دقائقه وتفصيلاته، ولأجل تحقيق هذه الغاية فقد اتبعت المنهج القانوني الإلمام بجميع التحليلي والمنهج التطبيقي والمنهج التاريخي.

١ – **المنهج القانوني التحليلي:** وقد اعتمدت على هذا المنهج من أجل استعراض جميع الآراء المتعلقة بموضوعات الدراسة وتحليلها والمقارنة فيما بينها مع بيان الأسباب والمبررات التي دفعتني لذلك.

٢- **المنهج التطبيقي:** باعتبار أن موضوع الدراسة لا يعالج قضية نظرية بحتة أو قليلة الحدوث والتكرار في العلاقات الدولية بل على العكس من ذلك فإن خطورة العدوان هو تكرار ارتكابه وانتشاره تحت مسميات ومبررات مختلفة.

٣ – **المنهج التاريخي:** لم أغفل الاعتماد أيضاً على المنهج التاريخي الذي لجأت إليه لعرض تطور كل فكرة تتعلق بموضوع الدراسة والخصوصية التي عرفتها في كل مرحلة عبرت بها وتجاوزتها حتى وصلت إلى صيغتها الحالية.

خامسًا: خطة البحث:

ووفقًا لما تقدم سوف نتناول هذا البحث من خلال مبحثين، وذلك على النحو التالى:

المبحث الأول: الأصول التاريخية للعدوان ومفهوم النظرية الداروينية

المبحث الثانى: مدى تأثير النظرية الداروينية على فكرة العدوان

المبحث الأول

الأصول التاريخية للعدوان ومفهوم النظرية الداروينية

إن التساؤل المنطقى الذى يثور فى بداية البحث عما هي الأسباب التي تغري الدول لشن الحروب وارتكاب أعمال العنف والقبول بما تتضمنه تلك الحروب من مصاعب ومآسي وآلام لا توفر أحداً ولا تقف عند حد معين ولا يمكن ضبطها ولا توقع ما يمكن أن تؤول إليه؟

فعلى الرغم من القناعة التامة بأن الوظيفة الدائمة للعدوان هو الدمار وأن ذلك الفعل يتسم بشكل خاص بالتبذير المفرط بالأرواح البشرية والثروات إلا أن دراسة واقع العلاقات الدولية يكشف لنا بوضوح أن الدول ما زالت تتورط بارتكاب أعمال العدوان التي قد تكلها كثيراً فيما بعد بل إنها قد تتسبب بقتل من شن العدوان وفناء الدولة ذاتها في بعض الأحيان، وهو ما يدفعني للتفكير قليلاً في تحليل وتأصيل وبيان الأسباب والدوافع التي تؤدي بالدول إلى خرق حالة الأمن والسلام وشن الحروب وارتكاب أعمال العدوان فى الفكر القانونى القديم وموقف الشرائع الدينية من العدوان، ثمن نعرض لمفهوم النظرية الداروينية.

ووفقًا لما تقدم سوف نتناول هذا المبحث من خلال مطلبين، وذلك على النحو التالى:

المطلب الأول: الأصول التاريخية للعدوان

المطلب الثانى: مفهوم النظرية الداروينية

المطلب الأول

الأصول التاريخية للعدوان

سوف نتناول هذا المطلب من خلال فرعين، وذلك على النحو التالى:

الفرع الأول: العدوان فى الفكر القانونى القديم

الفرع الثانى: موقف الشرائع الدينية من العدوان

الفرع الأول

العدوان فى الفكر القانونى القديم

إن السعي لتأصيل ظاهرة العدوان في العلاقات الدولية والتساؤل عن أسباب تلك الظاهرة ولماذا تنشب الحروب بين الدول هو أمر حظي باهتمام الكيرين من الفلاسفة والمفكرين والسيابين والقانونيين

والمؤرخين على مر العصور[١] بل إن العديد من الدول أدركت أهمية تحليل تلك الظاهرة والإجابة على ذلك السؤال فأنشأت لذلك المعاهد والأكاديميات التي تفرغ لها أساتذة وعلماء حتى بات هناك تخصص معروف بعلم الدراسات الحربية[٢] war studies كما أن الوقت الراهن قد شهد محاولات

---

(1) Alfred Zimmern; "The Greek Commanwealth – Politics and Economics in Fifth Century Athens' Oxford University Press (5th edition), 1961, pp. 246-247.

(٢) أشير هنا على سبيل المثال إلى المعهد الفرنسي لعلم الحرب الذي أسس في عام ١٩٤٥ من أجل الدراسة العلمية للحروب والسلم والنزاعات والأعمال الجماعية والعنف السياسي ومنذ أحداثه قام المعهد بإجراء العديد من الأبحاث الأساسية والنظرية والبحوث التطبيقية معاً، وبدءاً من عام ١٩٧٠ وبغرض تطبيق وتجربة – أفكار علم الحرب – باشر المعهد بإجراء ثلاثة بحوث مترافقة

الأول – دارسة العنف السياسي المباشر يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة استناداً لأسلوب تجريبي منذ خريف عام ١٩٦٧ ويتابع المعهد هذه الدراسة وينشر نتائجها دورياً في مجلة علم الحرب التي يصدرها المعهد منذ تموز ١٩٧١. الثاني – دراسة الحروب والثورات التي وقعت خلال قرنين من الزمان بدءاً من عام ١٧٤٠، وقد انتهت هذه الدراسة بإصدار كتاب – تحدي الحرب – الذي برهن على أن الحروب تعبر عن المجتمعات البشرية وتحولها). الثالث هدفه دراسة التفاعلات بين الحروب والحضارات بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر النووي القضائي ليكون مساهمة من علم الحرب المشكلة الحرب والسلام، راجع في هذا: الحروب والحضارات – تأليف مدرسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب – إصدار المؤسسة الفرنسية لدراسة الدفاع الوطني – ترجمة أحمد عبد الكريم – منشورات دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق – سوريا – ص ٢١ – ٢٢.

وأيضاً من أبرز المعاهد البحثية والمؤسسات التي تعنى بدراسات السلام وتأصيل ظاهرة العنوان في العلاقات الدولية وبيان أسبابها ودوافعها وتقديم الحلول والمقترحات للحد منها أشير على سبيل المثال إلى مركز الجامعة الأوروبية للدراسات السلمية – Eropean University Center For Peace Studies EPU وهو مركز دولي غير حكومي يتعاون مع اليونسكو من أجل نشر مبادئ الاسلام والعدل في العالم والعدل كما يقوم المركز بنشر آخر الابحاث التي توصل إلها حول السلام وأسس بناءه وتعزيزه في أرجاء العالم، وموقعه على شبكة الانترنت: http://www.aspr.ac.at.Htm

وأيضاً برنامج دراسات السلام Peace Studies Program التابع لجامعة كورنييل في الولايات المتحدة الأمريكية وهو أيضاً يعني بمشاكل السلام والحرب وتأصيل ظاهرة العدوان والعنف الجماعي وبيان أسبابه ودواقعه وكيفية ضبطه والحد منه وموقعه على شبكة الانترنت: http://www.Finauadi Corell/edu/peace.program

لإنشاء علم علم خاص بالعنف وهو – Violencology – كفرع مستقل من المعرفة العلمية يتميز بالخصوصية في نطاق موضوعات أبحاثه وفي أساليب ووسائل معالجة موضوعاته انطلاقاً من حقيقة التعاون الكامل المشترك بين العلوم الاجتماعية والطبيعية مستخدمين في بعض الأحيان الوسائل والأساليب التحليلية للعلوم الطبيعية[١].

ولا بد من الإشارة في البداية إلى أن العدوان ليس بالظاهرة الجديدة التي ابتكربتها الحضارة الحديثة وأوجدتها وإنما هو ظاهرة قديمة قدم الحضارة الإنسانية ذاتها.

إن دراسة تاريخ المجتمعات القديمة وتحليله والتأمل فيه يكشف لنا بوضوح أن الحرب والعدوان[٢] كان سلوكاً طبيعياً ومألوفاً لدى تلك المجتمعات.

فمن يقسم التاريخ اليوناني – اليوناني إلى فترات سيجد أن الحروب سادت في ثلاثة عشر قرناً بينما ساد السلام في قرنين فقط وهو ما عبر عنه الأستاذ Grundy وهو أحد المتخصصين في تاريخ الشرق القديم بقوله (حروب... حروب.. الحروب ولا شيء غير الحروب.. بعضها محدود وبعضها متسع..). فيما يشير الأستاذ A.E..Zimmerm وبصدد التاريخ اليوناني – الروماني إلى

وأخيراً مركز ذخيرة السلام The Fund For Peace وهي يعني أيضاً بمنع الحروب وتسوية الظروف الموالية والمسببة للعدوان ويقوم بتقديم الدراسات والأبحاث للحلول العملية لتسوية النزاعات الدولية على أسس العدالة واحترام المبادئ البنيوية للديمقراطية، وموقعه على الانترنت هو http://www.fund for.peace.org

(١) ف ديبوف – نظريات الملف في الصراع الأيديولوجي – ترجمة: د. سحر سعيد – دار دمشق للطباعة والنشر – سوريا – الطبعة الأولى – ١٩٨٢ – ص ١١٤ – ١١٥

(٢) عبد الناصر حريز – الإرهاب السياسي – مكتبة مدبولي – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٩٦ – ص ٤٠. هنا لا بد من الإشارة إلى أن معظم الحروب التي اشتعلت في التاريخ اليوناني – الروماني كان واضحاً فيها الجانب المعتدي والجانب المدافع – المعتدى عليه باستثناء حربين لا تزال المسئولية غير محددة فيهما وهما الحرب البيلوبونيزية بين أثينا وإسبارطة والحرب الأهلية بين قيصر وبومباي ففي كلتا الحالتين لا يزال الغموض والاختلاف في إلقاء المسئولية هو الشغل الشاغل للمؤرخين راجع في تفاصيل تلك الحروب
د جمال حمدان – استراتيجية الاستعمال والتحرير – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – الطبعة الثانية ٢٠٠٠ – ص ١٩ – ٢٥

Robert Gilpin. War and Change in World Politics Cambridge, England: Canbridge University Press, 1981 pp. 227-229.

أن الحرب في الولايات اليونانية كانت جزءاً من حياتها كالرياضة واللهو بالنسبة لنا.. وأن الحرب لم تكن ببساطة سوى طريقة عادية لقضاء بعض الوقت في معسكر الربيع المبكر) [١].

بل إن فلاسفة اليونان كانوا قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث أنهم مجدوا أعمال الحرب والعدوان واعتبروا أنها تمثل الأساس الذي ينبت عليه جميع الفوارق بين البشر وهو ما عبر عنه الفيلسوف اليوناني هيراكليت بقوله (الحرب هي أم جميع الأشياء فهي تصنع الآلهة كما تصنع العبيد)[٢] ولهذا نجد أن أوابد الأعمال الشعرية والأدبية كانت عبارة عن الملاحم الحماية التي تمجد الأبطال المحاربين وأعمالهم العظيمة وحملاتهم الحربية كما هو الحال بالنسبة للإلياذة[٣] وأغاني رولاند[٤] وهو ما ينطبق على الأعمال الفنية الأولى والرسوم المنحوتة في الصخور وأساطير الآلهة.[٥]

هذا وقد تعددت الأسباب التي كانت تدفع الشعوب القديمة إلى شن الحروب وارتكاب العدوان فكانت بدافع الحاجة إلى الطعام والرغبة في البقاء ثم بهدف ممارسة النشاط واكتساب الأقاليم والسيطرة ومن ثم الميل نحو الاستقلال. [٦]

ذلك أن ظهور المدنيات والحضارات القديمة أدى إلى تقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية فعرف نظام الرق ثم سعت تلك الحضارات إلى تكوين الامبراطوريات وهو ما أدى إلى إشعال نار الحروب بدافع الرغبة في الاستقلال والتخلص من السيطرة والعبودية ومثال ذلك الحروب التي اندلعت في عام ١٦٠٠ ق. م بين ملوك مصر العليا والملك كيموس ومن بعده الملك أحمس الأول

([1]) Alfred Zimmern; the Greek Commonwealth- Politics and Economics in Fifth Century, op – cit, p. 245.

([٢]) الحروب والحضارات – مرجع سابق – ص ٣٨

([٣]) وهو اسم ملاحم هندية مقدسة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس عشر ميلادي وهي تروي حياة الملك الذي يجسد الآلهة فيشنو

([٤]) وهو أحد أشهر الأبطال في عهد الملك شارامان وكان قد قتل في الحرب ضد التاسك عام ٧٧٨م.

([٥]) وهو ما يعد قاسماً مشتركاً بين آلهة الأولمب عند الإغريق ومجمع الآلهة الهندية والجرجانية والإفريقية وكذلك الية الهنود الحمر في القارة الأمريكية، راجع في تفاصيل هذا: الحروب والحضارات – مرجع سابق – ص ٣٨.

([٦]) د. يحي الشيمي علي – مبدأ تحريم الحروب في العلاقات الدولية – رسالة دكتوراه – كلية الحقوق – جامعة القاهرة ١٩٧٦ – ص ١٠٨ – ١١١

من أجل طرد الهكسوس من البلاد المصرية[١] وكان ظهور تلك الامبراطوريات بداية لمرحلة جديدة سادت فيها دوافع مختلفة لشن الحروب وارتكاب أعمال العدوان التي تزايدت بدافع الفوضى السياسية التي كانت تعم العالم القديم نتيجة عدم وجود قانون دولي ينظم سلوك الدول مع رغبة تلك الدول والامبراطوريات في التوسع وضم المدن والدويلات الصغيرة المجاورة لها.

إضافة إلى التعصب الوطني والنزعة العنصرية التي سادت في تلك المرحلة نتيجة عدم تبلور الفكر السياسي ونضجه في ذلك الوقت[٢] ولذلك سادت فكرة أن سيطرة القوي على الضعيف هو أمر طبيعي وأن من حق الأقوى أن يحكم الأضعف[٣].

هذا بالإضافة إلى تغلغل النظام الاجتماعي لدى تلك المرحلة وهو ما أفرز قيادات تسبب بفوضى سياسية والمزيد من أعمال الحروب والعدوان فضلاً عن سيطرة الارستقراطيين على الحكم في العالم القديم وحبهم للقتال ونزعتهم الطبيعية نحو العدوان طالما أن الحرب عندهم مجرد رياضة كالصيد في وقت السلام[٤].

ولذلك استمرت الحروب وتوارثت الحضارات الحديثة السلوك العدواني حتى وقتنا الحالي.. وهو ما دفع الفيلسوف والمفكر برتراند راسل إلى التأكيد على أن المشكلة الرئيسية التي كانت في العالم

---

(١) د. حامد سلطان – الحرب في القانون الدولي – المجلة المصرية للقانون الدولي ١٩٩٩ – ص ٥ وما بعدها.

(٢) راجع في تفاصيل الفكر السياسي الذي كان سائداً ومسيطراً على تلك الجماعات في ذلك الوقت: جون باول – الفكر السياسي الغربي – ترجمة محمد رشاد خميس – مراجعة د. راشد البراوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٥ – ص ٣٥ وما بعدها.

(٣) وهو ما عبر عنه بأبلغ صورة المؤرخ اليوناني ثوكوديديس في حوار أجراه على لسان إحدى الشخصيات التي كانت تبرر عدوان اثينا على ميلوس حيث كتب يقول (.. إن العقيدة تجعلنا نؤمن والمغرفة تجعلنا نعرف – أن الآلهة والناس – بدافع حتمي نابع من طبيعتهم يميلون إلى السيطرة والتحكم كلما أتيحت لهم الفرصة، وليس لدينا إلا أن نستغل هذه الظاهرة جيداً لأنكم يجب أن تعلموا أنكم أو غيركم سوف يفعل ما نفعل لو تحقق له نفس القوة..) راجع في هذا :

د سيد أحمد علي الناصري – الحرب والمجتمع القديم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ٢٠٠٠ – ص ٥٧

(٤) راجع في دراسة تفصيلية لتلك الأسباب والدوافع

د. سيد أحمد علي الناصري – الحرب والمجتمع القديم – مرجع سابق – ص ٣٣ وما بعدها.

Alfred Zimmern; the Greek Commonwealth – Politics and Economics in Fifth Century. op – cit, p. 245–246.

القديم ما زالت هي نفس المشكلة في العالم الحديث والمعاصر وهي مشكلة الحرب والسلام ومسئولية السياسيين والحكومات في الحفاظ على السلم ومنع نشوب الحرب.

بل إن هذه المشكلة تضاعفت خطورتها وزادت أهميتها مع التقدم العلمي والتقني الذي وصلت إليه الحضارة الإنسانية منذ مطلع القرن العشرين والذي استفادت منه الصناعات العسكرية – كما استفادت منه قطاعات أخرى – وهو ما أدى إلى ابتكار المزيد والأحدث من وسائل القتل والدمار ذات القدرة التدميرية الهائلة والمرعبة والتي سخرتها العديد من الدول والأنظمة لارتكاب المزيد من أعمال العدوان.

وهو ما يزيد من خطورة هذه المشكلة ويضاعف من آثارها سيما أن العالم بدأ سباق تسلح جديد يهدد مصير البشرية كلها وذلك بعدما أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش – الابن – بتاريخ ١٣ ديسمبر ٢٠٠١ انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة (آي بي إم) للحد من انتشار الأسلحة الباليستية حتى تتمكن بلاده من نشر نظام الدفاع المضاد للصواريخ ضد دول غير مأمونة الجانب[١] وهو ما اعتبرته العديد من الأوساط العسكرية والأكاديمية إيذاناً بدخول العالم مرحلة جديدة من سباق التسلح والتي لا يعرف مداها ولا ما ستنتهي إليه.

الفرع الثانى

موقف الشرائع الدينية من العدوان

كما سبق أن أشرنا أن المجتمعات القديمة وحتى قبل بزوغ نور الشرائع الدينية وظهور الدول كانت قد عرفت ظاهرة العدوان أيضاً، بل أن العدوان كان مباحاً في ظل تلك المجتمعات الفطرية حيث كان يمثل بالنسبة لها ضرورة للبقاء[٢].

---

(١) من المعروف أن هذه المعاهدة التي وقعت عام ١٩٧٢ تحظر على موقعيها إجراء أية تجارب دفاعية صاروخية، وهي تنص أيضاً على أن تعلن أي دولة ترغب في الانسحاب منها عن ذلك قبل ستة شهور من البدء بالتطبيق، وهو ما أعلنه الرئيس الأمريكي بتاريخ ٢٠٠١/١٢/١٣ راجع في هذا المعاهدة: جوزيف روتيلات – المحاولات القديمة لإبطال الأسلحة النووية – بحث منشور ضمن كتاب عالم نظيف من السلاح النووي – تحرير فرانك بلاكباي – ترجمة أدهم السمان – الناشر دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق – سوريا – الطبعة الأولى ١٩٩٤ – ص ٤٥ – ٤٦

(٢) د. محمد عبد المنعم عبد الخالق – الجرائم الدولية – دراسة تأصيلية للجرائم ضد الإنسانية والسلام وجرائكم الحرب، رسالة دكتوراه منشورة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٠١٣.

فهذه المجتمعات التي اتخذت بداية شكل الأسرة ثم القبيلة فالمدينة ومن ثم الدولة، كانت تعتقد بسمو أفرادها وتفوقهم على سائر أفراد المجتمعات الأخرى فالاغريق والرومان كانوا يؤمنون حقا بامتيازهم على سائر البشر في ظل عدم اعترافهم بالمساواة بينهم وبين سائر الشعوب الأخرى التي كانت علاقتهم معها أساسها الحرب والفتوحات.

وان كانت بعض الكتابات تتحدث عن مفهوم بدائي لدى الرومان عن فكرة الحرب العادلة وهي الحرب التي تقوم عند (رفض التعويض أو قبول التراضي أو القيام بأي انتهاك لقانون الامبراطورية الرومانية) [1]، ولا تعتقد الباحثة بوجود مثل هذا التصور الأخلاقي لفكرة الحرب في الفكر الروماني القديم حيث لم تكن هناك حاجة في تلك المجتمعات لاضفاء طابع أخلاقي على تصرف كان يعد شرعياً وطبيعيا في حينه وان اتخذ صفة العدوان، ولهذا فإننا نجد أن العدوان كان ظاهرة طبيعية عند تلك المجتمعات بل انه كان وسيلتها المثلى للتوسع وضمان البقاء.

وسوف نتناول موقف الشريعة اليهودية والشريعة المسيحية، وكذلك الشريعة الإسلاميم من العدوان، وذلك على النحو التالى:

أولاً: موقف الشريعة اليهودية من العدوان:

لابد من الإشارة بداية إلى ضرورة التمييز بين الشريعة اليهودية الحقيقة التي هي دين سماوي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله الذي اصطفاه من سائر البشر، وبين ما نسبة اليهود كذبا وزورا الى الله ورسوله.

فالنصوص اليهودية المتداولة تذخر بالعديد من القصص والروايات التي تحض على الحرب والعدوان بل وعلى استرقاق سائر البشر والعباد[2]، وبحيث يفهم من تلك النصوص ان الدين اليهودي لم يحظر الحرب ويمنعها وانما اباحها ومجدها ودون أن يضع أي قيد على ممارستها أو على أساليب القتال فيها بحيث بات رب اليهود كما توحي تلك النصوص هو رب الانتقام[3].

---

(1) ا.د. صلاح الدين أحمد حمدي، العدوان في ضوء القانون الدولي، الطبعة الأولى – المكتبة الوطنية – بغداد – العراق ١٩٨٦ ص ١٨٢

(2) د. محمد جلاء إدريس – فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي – مركز الدراسات الشرقية – جامعة القاهرة – سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية رقم (١٨) – ١٤٢٢/٢٠٠١م – ص ٣.

(3) د. عبد الواحد محمد الفقار – الجرائم الدولية وسلطة العقاب عليها – دون رقم الطبعة – دار النهضة العربية القاهرة – ١٩٩٥– ص ٠١٤٦

حيث ورد في نصوصهم ما زعموا أنها وصايا الرب التي نقلها موسى عليه السلام لبني اسرائيل حيث قال لهم.. (إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولا، قد خرج أناس بنو لتيم من وسطك وطوحوا سكان مدينتهم قائلين نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفوها وفحصت وفحصت وفتشت وسالت جيدا وإذا الأمر صحيح وأكيد قد عمل ذلك الرجس في وسطك فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا الأبد لا تبنى بعد) [١]، وأنه (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فان أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعوب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستبعد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا وأما هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك، لكي لا يعلموكم أن تعلموا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم) [٢].

وهكذا باتت الحرب اليهودية هي (رمز انتقام الرب من الشعوب غير اليهودية) [٣] وهي بذلك لا تخضع لأي قيد أو مبدأ انساني بل إنها تحض على اتباع كل وسائل القتل والتعذيب ضد غير اليهود من القتل بحد السيف حتى الحرق بالنار وأيضاً النساء والأطفال والبهائم[٤].

وانظر أيضا في هذا الرأي.. حامد سلطان – أحكام القانون الدولي في الشريعة الاسلامية – بحث ضمن مجموعة – التشريع الاسلامي والنظم القانونية الوضعية – صدر باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالشعبة القومية لليونسكو الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٨ – ص ١٥٥

(١) سفر التثنية – الإصحاح ١٣ – ١٢/١٦

(٢) سفر التثنية – الإصحاح ٢٠ – ١٠/١٨

(٣) د. حازم محمد عتلم، قانون النزاعات المسلحة الدولية، المدخل – النطاق الزماني – الطبعة الأولى، دون ناشر – القاهرة ١٩٩٤ – ص ٤٨

(4) Hobbs. T.R: A Time for War A Study of Warfare in the Old Testament Wilimington, U.S.A., 1989pp. 148-149.

وبالتالي فإن الحرب والعدوان لاحدود لها عند اليهود فهي مشروعة بالمطلق ومباحة لأقصى الحدود برغم أن نصوص التلمود قد أوحت بوجوب التمييز بين طائفتين من الحروب وهي الحروب الدينية من جانب والحروب القومية من جانب آخر[١]

أما الحروب الدينية[٢] فهي تلك الحروب الاجبارية التي فرضها الرب على موسى عليه السلام للقيام بها، وهي تشمل الحروب التي يشنها اليهود في مواجهة الشر المطلق الذي تجسد عند خروجهم من مصر في شخص القائد الفلسطيني عماليق[٣] والحروب التي يتعين على اليهود القيام بها في أرض فلسطين وفي مواجهة شعوبها السبعة التي كانت موجودة وقتذاك[٤] وأيضاً الحروب التي يقوم بها اليهود في مواجهة المعتدي والتي قد تتخذ شكل الحروب الدفاعية أو الحروب الهجومية الوقائية[٥].

---

(١) انظر أيضاً في أسباب الحروب ودوافعها عند اليهود :

Hobbs. T.R: A Time for War A Study of Warfare in the Old Testament, op. cit.p.33

(٢) د. حازم محمد عتلم – قانون النزاعات المسلحة الدولية – مرجع سابق ص ٤٨ – ٤٩. انظر أيضاً في مفهوم الحروب المقدسة لدى اليهود:

د. محمد جلاء إدريس – فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي – مرجع سابق – ص ١٢.

(٣) حيث ورد في العهد القديم (اذكر ما فعله بك عماليق في الطريق عند خروجك من مصر، كيف لاقاك في الطريق وقطع من مؤخرك كل المستضعفين وراءك وأنت كليل ومتعب ولم يخف الله، فمتى أراحك الرب إلهك أعدائك حولك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيباً لكي تمتلكها تمحو ذكر عماليق من تحت السماء لا تنسى) سفر التثنية – ٢٥

(٤) حيث ورد في سفر يشوع (أخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها لم يبقى شارداً وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل اسرائيل معه إلى لبنه وحارب لبنه فدفعها الرب هي أيضاً بيد اسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها، لم يبقى بها شارداً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا ثم اجتاز يشوع وكل اسرائيل معه من لبنه إلى لخيش ونزل عليها وحاربها فدفع الرب لخيش بيد اسرائيل فأخذها في اليوم الثاني وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة، حينئذ صعد هورام ملك جازر لاعانة لخيش وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق له شارداً) سفر يشوع – الإصحاح ١٠ – ٢٨/٣٣.

(٥) حيث ورد في سفر صموئيل الثاني (ضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات، فأخذ داود منه الفأوسبع مائة فارس وعشرين ألف،راجل عرقب داود جميع خيل المركبات وأبقى منها مئة مركبة فجاء آرام دمشق للجدة هند عزر ملك صوبة، فضرب داود من أرام التلين وعشرين ألف رجل

وأما الحروب القومية فهي اختيارية وهي التي انيط بها مقتضيات السمو لبني اسرائيل من خلال الاضطلاع بالفتوحات الدولية التي من شأنها تعظيم شأنهم وهم شعب الله المختار[١].

ولابد من الاشارة طبعاً إلى أن هذه النصوص اليهودية المزعومة قد استخدمت أسوأ استخدام وسخرت أسوأ تسخير لتبرير قيام اسرائيل، حيث لم ينفذ اليهود إلا وصايا ربهم ولم يطالبوا بأكثر من الوعد الذي أعطاه لهم[٢] ما دام الرب قد خاطب أنبياء اليهود قائلاً (في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) [٣] " وأنه (أعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون الههم) [٤] وهكذا كان الدافع الأبرز الذي غذا الصحوة القومية اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر وجذبهم إلى فلسطين إنما كان هو تحقيق (نبوءة عودة صهيون التي تحيا في المشترك الوعي للمحافظين على الوصايا وفي

وجعل داود محافظين في آرام دمشق وصار الآراميون لداود عبيداً يقدمون هدايا) صموئيل الثاني – الإصحاح ٨-٦/٣.

(١) د. حازم محمد علم – قانون المنازعات المسلحة الدولية – المرجع السابق – ص ٤٩

(٢) يشير الفيلسوف والمفكر الفرنسي روجيه غارودى إلى أن قراءة النصوص المقدسة في منطقة الشرق الأوسط تبين لنا أن جميع شعوب المنطقة من بلاد النهرين إلى مصر بما في ذلك الحيثيون قد تلقوا وعوداً مماثلة، حيث كان الاله بعد كل شعب بالأرض، ففي مصر نجد المسلة الضخمة في الكرنك والتي شيدت في عصر تحوتمس الثالث بين عامي ١٤٨٠ و ١٤٧٥ قبل الميلاد تمجيداً لانتصاراته وقد دونت عليها عبارة الاله (أمنحك هذه الأرض بامتدادها في جميع الجهات لتكون لك شرعاً لقد جئت لازودك بكل السبل لكي تجتاح الأرض الغريبة).. وعلى الجانب الآخر في منطقة الهلال الخصيب نجد في – أنشودة الخلق البابلية – أن الإله مردوخ يحدد لكل نصيبه (البيت ٤٦) ويأمر ببناء بابل وتشييد معبد فيها، وأيضاً كان الحيثيون ينشدون لربة الشمس أرينا قائلين (.. أنت تحرسين أمن السماوات والأرض وتعينين حدود الأرض.. ويعلق روجيه غارودي على هذه الوعود قائلاً : أنه لو لم يكن اليهود قد – تلقوا – وعداً كتلك الوعود لأصبحوا دون شك حالة شاذة. انظر: روجيه غارودي – الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية – ترجمة محمد هشام الطبعة الأولى – منشورات دار الشروق القاهرة ١٩٩٨ – ص ٤٥

Weinfield, M: Deuteronomy and the Deuteronomic School, Oxford, 1972,p.45 etc.

(٣) سفر التكوين الإصحاح – ١٥ /١٨.

(٤) سفر التكوين – الاصحاح ٨/١٧

كتب الصلوات وفي احتفالات عيد الفصح وفي الحزن على خراب الهيكل بكل روح اليهودية الدينية التقليدية) [١].

ولعل التساؤل الذي يطرح نفسه في هذه الصدد هل يمكن أن تشكل هذه النصوص وتلك الوعود والنبوءات جوهر الديانة اليهودية الحقيقية التي مصدرها الله رب السماوات والأرض؟

هل من المعقول أن الله سبحانه وتعالى وهو مصدر كل الديانات السماوية هل من المعقول أنه يحض على العدوان ويشجعه بكل عنفه وفظائعه في دين ثم ينهى عنه بل ويحرمه في الأديان الأخرى؟

إن هذا غير واقعي، وهو بطبيعة الحال ينافي العقل والمنطق، ولهذا نجد أن العديد من الآراء قد ذهبت إلى خلاف ما سبق ذكره حيث يؤكد الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة إلى أن قتال أنبياء اليهود كان (قتالاً تسوده الفضيلة وتحكمه العدالة واذا كانت قد نسبت إليهما أمور غير عادلة فالنسبة باطلة، ونحن المسلمين لا نصدقها بل نقول أنها من الأساطير التي لا تتفق مع عصمة النبيين عن الظلم والرذيلة). [٢]

بل إن هناك العديد من الدراسات التي بحثت في مدى صحة محتوى أسفار العهد القديم، ومدى صحة نسبة هذه الأسفار الخمسة – بما فيها التوراة لموسى عليه السلام[٣] وتخلص هذه الدراسات إلى التأكيد على أن موسى عليه السلام لم يكتب هذه الأسفار التي يطلق عليها اليهود

([١]) آمنون روبنشتاين – لنكن شعباً حراً.، ١٩٧٠ مشار إليه عند د. رشاد عبد الله الشامي، القوى الدينية فى اسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة – سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٦ – تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – حزيران – يونيو ١٩٩٤ – ص ١٥

([٢]) الشيخ محمد أبو زهرة – نظرة الاسلام إلى الحرب – المجلة المصرية للقانون الدولي – ص ٣٠.

([٣]) يعد الفيلسوف spinoza ١٦ – ١٦٧٧م من أبرز علماء اليهود الذين درسوا التوراة بصورة نقدية، وقد عدم صحة نسبة التوراة والأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام، وقد اعتمدت دراسته هذه بصورة رئيسية على تحليل وتفسير ما كتبه الحبر اليهودي – ابراهيم بن عزرا أكد في رسالته المنشورة عن – اللاهوت والسياسة. ١٠٩٢ – ١١٦٧ والذي يعد أول عالم اسرائيلي معروف أكد على خطأ نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام، وإن كان الامام الأندلسي ابن حزم قد سبقه إلى هذا بأكثر من مائة عام وذلك في كتابه الموسوعي (الفصل في الملل والأهواء والنحل). للمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع انظر :

د. حسن ظاظا – الفكر الديني في اسرائيل أطواره ومذاهبه – الناشر مكتبة سعيد رأفت – القاهرة – ١٩٧٥. د. محمد عبد الله الشرقاوي – في مقارنة الأديان – الطبعة الثانية – الناشر دار الجليل بيروت – ١٩٩٠.

روجيه غارودي الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية – مرجع سابق

والنصارى اسم التوراة وينسبونها إلى موسى وأن مؤلف هذه الأسفار شخص عاش بعد موسى بزمن طويل جداً وأن السلام قد كتب سفراً مختلفاً عن هذه الأسفار الخمسة المشهورة[١].

وتعتمد هذه الدراسات في تأكيد صحة ما وصلت إليه من نتائج على العديد من الحقائق العلمية والتاريخية والتي يمكن ايجازها في أن الأسفار الخمسة قد أشارت إلى وقائع لم تحدث إلا بعد موسى عليه السلام يقيناً وجعلته شريكاً في صنعها، وأن توراة الحقيقية كانت وبنص الأسفار الحالية أصغر في الحجم بكثير من الأسفار الخمسة المعروفة، وأن أسلوب صياغة هذه الأسفار الحالية يجزم بأن موسى عليه السلام لم يكن واضعها وذلك من طريقة اسناد الضمائر أو التعليق على نصوص الرواية وشرحها، فضلاً عن أن الأسفار تشير إلى أسماء أماكن لم تعرف إلا بعد موت موسى عليه السلام بزمن طويل ولم يكن ذلك على سبيل التنبؤ الاعجازي من موسى ولكن كان على سبيل القص الروائي[٢].

وتخلص الباحثة من كل ما سبق إلى أن كل ما تحفل به النصوص اليهودية القديمة من تمجيد للحروب وحض على العدوان إنما هي نصوص مزورة مصطنعة أريد منها تحقيق غاية قومية دنيوية[٣] لا علاقة لها بتعاليم الدين ولا بأوامر الله والأجناس سبحانه وتعالى الذي هو رب التسامح والسلام لكل الأديان ولسائر الشعوب والأجناس.

ثانيًا: موقف الشريعة المسيحية من العدوان:

---

(١) د. محمد عبد الله الشرقاوي، في مقارنة الأديان، مرجع سابق – ص ٧٤.

(٢) د. محمد عبد الله الشرقاوي – في مقارنة الأديان – مرجع سابق – ص ٧٦ – ٧٧ وهو يعرض هنا خلاصة ما توصل إليه spinoza في رسالته عن – اللاهوت والسياسة فراس سواح – الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم – دار علاء الدين – دمشق – الطبعة الثالثة ١٩٩٧ – ص٥

د. محمد جلاء إدريس – فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي – مرجع سابق – ص ١٢.

Weinfield, M: Deuteronomy and the Deuteronomic School, op.cit. pp. 45-51.

(٣) بهذا الصدد يذكر ماكس نورد او ١٨٤٩ – ١٩٢٣ وهو كاتب ألماني وزعيم صهيوني وصديق مقرب من تيودور هرتزل أن التوراة) تعتبر كعمل أدبي أقل من أعمال هوميروس والكلاسيكيات الأوروبية، وأنها طفولية المقدس حتى لدى خصوم المؤلف من المتدينين) كفلسفة، ومقززة كنظام أخلاقي، وأنه سيأتي يوم يأخذ فيه كتاب هرتزل – دولة اليهود – وضعاً مساوياً للكتاب القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة – مرجع سابق – ص ١٥. انظر في هذا: أمنون روبنشتاين – لنكن شعباً حراً – ص ٢٠. مشار إليه عند د. رشاد عبد الله الشامي إنجيل متى – انجيل مرقص – انجيل لوقا – انجيل يوحنا.

كان من الطبيعي أن ترفض الديانة المسيحية العدوان وتحرمه فالديانات تعبر دائماً عن إرادة الله رمز السلام والعدل، وهكذا كانت المسيحية التي مثلت مبدأ السلام الخالص والمطلق.

حيث تحفل النصوص المقدسة والأناجيل الأربعة بالعديد من المواعظ التى تحض على السلام وترفض الحرب والعدوان، فقد ورد في انجيل متى على لسان السيد المسيح عليه السلام قوله: (سمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ايضا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين. من سألك فاعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبعض عدوك، واما أنا فاقول لكم احبوا أعداءكم باركوا لأعنيكم، احسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لاجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات) [١].

وهكذا رفعت المسيحية ألوية السلام والمحبة ونبذ العدوان والمعتدين حيث يقول السيد المسيح (طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض طوبي للجياع والعطاش الى البر لأنهم يشبعون طوبى للرحماء لأنهم يرحمون طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون.)[٢].

ولكن إذا كانت المسيحية ترفض إباحة العدوان إلا أنها بالمقابل تأبى أن تكون عرضة له، فالسلام ونبذ العدوان يختلف تماماً عن السلبية والخضوع للمعتدي، وهكذا نجد السيد المسيح يطلق صيحته لا تظنوا أنى جئت لألقي سلاما على ما جئت لألقي سلاما بل سيفا فاني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها واعداء الإنسان أهل بيته من احب أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني.ومن احب ابنا أو ابنة اكثر مني فلا يستحقني ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني من وجد حياته يضيعها. ومن اضاع حياته من اجلي يجدها) [٣]

وهكذا أباح فقهاء الكنيسة الحرب المشروعة[٤] التي تستهدف مواجهة المعتدي ورفع الظلم والدفاع عن الحقوق وتتطابق مع المبادئ الانسانية بهدف تحقيق السلم الدائم وأخضعوا حروبهم

---

(١) إنجيل متى الإصحاح ٥ – ٣٨ / ٤٥.

(٢) إنجيل متى – الإصحاح ٥ – ٩/٥

(٣) إنجيل متى – الإصحاح ١٠ – ٣٤ / ٣٩.

(٤) د. نصار عبد الله – نظرية الحرب العادلة – دون رقم طبعة – منشورات عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٣ – ص ٣١.

ومعاركهم الدفاعية في وجه المعتدي للعديد من القواعد التي تستهدف احترام حياة الأبرياء وأموالهم ومعاملة الرهائن والأسرى معاملة حسنة وعدم استخدام الأسلحة المسمومة، كما التزموا بالعديد من القواعد الدينية في معاركهم كالهدنة الالهية التي يقصد بها تحديد مواقف زمنية يحرم فيها القتال كتحريمه أيام الصيام والأعياد تحت طائلة الحرمان من الغفران، وأيضاً قاعدة السلام الإلهى يقصد بها اعفاء رجال الدين من الانضمام للخدمة العسكرية واسباغ المزيد من الحماية على النساء والأطفال وكبار السن. [١]

وهكذا كان العدوان مجرم في ظل تعاليم الكنيسة حيث بات استخدام القوة ضد الآخرين – أفراد أو شعوب أو دول – أثم عظيم يحرم مرتكبه من الغفران في الدنيا ويعرضه لأعظم الجزاء في الآخرة.

وكان من الطبيعي أن تثير هذه المبادئ المسالمة حفيظة رجال الحكم في روما المتعطشين للحرب والتوسع والذين اعتبروا أن مبادئ المسيحية ستقف عقبة في وجه أطماعهم سيما أن معتنقي المسيحية من الرومان كانوا يرفضون القيام بالخدمة العسكرية في روما أو الانضمام للجيش الروماني أو الاشتراك في الحروب التي كانت تشنها الامبراطورية الرومانية[٢]

ولهذا دار صراع عنيف لمدة أربعة قرون بين رجال الكنيسة بما يمثلونه من قيم المسيحية الرافضة للحرب،والعدوان وبين رجال الحكم الرومان الذين تبنوا العدوان سياسة والحروب وسيلة وتعظيم الامبراطورية بالقوة هدفاً لا حياد عنه. وكان قرار ميلانو الشهير سنة ٣١٣م هو محطة فاصلة في هذا الصراع حيث اعتنق الامبراطور قسطنطين الديانة المسيحية التي أصبحت الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية، بيد أن هذا الاعتناق لم يؤد إلى تهذيب سلوك الامبراطورية ليتوافق مع المبادئ الكنسية السلمية وإنما حدث العكس حيث أدى هذا التحالف إلى تحليل الحرب[٣] وهكذا

Bainton R.H: (Christion Studies Toward War and Peace, A Historical Survery and Critical Revolution), A Bing- don Press, New York, 1961, p.38etc.

([١]) راجع في هذا د. محمد عبد المنعم عبد الخالق – الجرائم الدولية – مرجع سابق – ص ٢٠.أيضاً انظر في هذا: د. أحمد فؤاد رسلان – نظرية الصراع الدولي – مرجع سابق – ص ٧٤.

([٢]) راجع في هذا: د. صلاح الدين عامر – مقدمة لدراسة قانون النزاعات المسلحة – دار الفكر العربي – الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٧٦ – ص ١٤.

([٣]) د. حامد سلطان – الحرب في نطاق القانون الدولي – المجلة المصرية للقانون الدولي – العدد ٢٥ . سنة ١٩٦٩ – ص ١٠.

تغلبت المادية على الروحية[١] في واحدة من مراحل الصراع الطويل الذي بدأ منذ قرون ولم ينته بعد.

هذا وقد ظهرت العديد من النظريات التي حاولت التوفيق بين السلطتين المادية والروحية وذلك بهدف اضفاء طابع الشرعية على حروب الامبراطورية الرومانية وهنا تبرز أراء القديس (ايذودور) والقديس (امبراوز). ولكن يعد القديس (أوغسطين) – ٣٥٤ – ٤٣٠م العراب الحقيقي لفكرة الحرب العادلة[٢] التي استهدف توفير راحة رخيصة للضمائر، وذلك بالتوفيق بين المثل الأخلاقي الأعلى للكنيسة وبين الضرورات السياسية المحيطة بها.

وقد نشر أوغسطين أفكاره حول الحرب العادلة في مؤلفين الأول بعنوان – العقيدة المخالفة – وفيه يؤكد أن المساهمة في الحرب تحت قيادة أمير شرعي من أجل عمل الخير وتجنب الشيطان لا تعتبر خطيئة بل أعمال القضاء العادل المنتقم، بحيث تكون الحرب في مثل هذه الحالة إجراء لانزال العقاب العادل ومن ثم فليس هناك ظلم يرتكبه من يقوم بالحرب العادلة، بل أن أوغسطين يذهب بعيداً في هذا المجال حيث يؤكد أن الحرب العادلة بهذا المفهوم إنما هي تقع لصالح المنهزمين لأنها تعود بهم إلى حال السعادة والسلام بحيث أن الحرب عندئذ تصبح مجرد أداة لتحقيق السلام وبهدف ضمان السلام. [٣]

وبعد أن أسبغ (أوغسطين) المشروعية على الحرب انتقل في مؤلفه الثاني. الصادر عام ٤٢٥م إلى التمييز ما بين الحرب العادلة والحرب الظالمة.

وأما الحرب العادلة – وهي مباحة من حيث الحكم الشرعي – فهي تستهدف الانتقام من الظلم، ومن أمثلتها الحروب الدفاعية والحروب التي يأمر بها الله وتلك التي تستهدف حماية الحلفاء والدفاع عنهم.

وأما الحروب الظالمة – وهى غير مشروعة – كحرب المغانم والحرب التي تستهدف اشباع شهوة السلطة والحصول على المجد العسكري واعلاء الروح العسكرية الوطنية وأيضاً الحروب الأهلية وكان (أوغسطين) يرى أنه ينبغي عدم الاعلان عن الحرب الا اذا اقتضت الضرورة وحدها. [٤]

---

(١) **د. عبد الواحد محمد الفار – الجرائم الدولية وسلطة العقاب عليها – مرجع سابق – ص ١٤٧.**

(2) **Bainton R.H: (Christion Studies Toward War and Peace, A Historical Survery and Critical Revolution). Op.cit.p.38.**

(٣) **د. عبد الواحد محمد الفار – الجرائم الدولية وسلطة العقاب عليها – مرجع سابق – ص ١٤٧ – ١٤٨**

(٤) **انظر في أفكار – اوغسطين – المراجع التالية :**

وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الأفكار إلى عرقلة مسيرة التطور الانساني بأسره لتشغل العالم بحروب لا تنتهي، فهي أضفت المشروعية على الحرب العادلة دون أن تعنى بتحديد مفهوم العدالة بصورة أكثر دقة فبات من المألوف تماماً أن يزعم كل طرف محارب أن قضيته وحدها هي العادلة وأنه يشن الحروب باسم الله (فيطهر نفسه بهذا الادعاء من الخطيئة) مادام خصمه قد أصبح – تلقائياً – عد الله.

وهكذا جرت المذابح بلا حساب تحت ستار من الحق المشوب بالرياء ولعل الحروب الصليبية هي أسوأ ما نتج عن هذا التزاوج النفعي بين الكنيسة والسياسة، هذا التزاوج الغريب الذي أبعد الكنيسة عن مبادئ السلام الذي تمثله، وهو الذي أثمر عن فكرة مشوهة للحرب العادلة بكل ما جرته على الانسانية من ويلات ومصائب.

ثالثاً– موقف الشريعة الاسلامية من العدوان:

أما الشريعة الإسلامية السمحاء فكان من الطبيعي أن ترفض العدوان وتنبذه فهي شريعة السلام حيث العدوان محرم فيها تحريماً مطلقاً لا شبهة فيه، فمن السلام جاءت كلمة الاسلام وهي الكلمة التي تمثل عنوان الدين وترسم كل ملامحه ومبادئه والمتأمل للنصوص القرآنية الكريمة والتعاليم الاسلامية يكتشف أن شريعتنا الغراء قد وضعت نظرية متكاملة لنبذ العدوان وبينت حدود استخدام القوة وشروطها[1] وهي النظرية التي بايعها القانون الدولي وأقرها بعد ذلك بقرون عدة.

د. صلاح الدين عامر – مقدمة لدراسة قانون النزاعات المسلحة – مرجع سابق – ص ١٥ – ١٦.

د. عبد الواحد محمد الفار – الجرائم الدولية وسلطة العقاب عليها – مرجع سابق – ص ١٤٧ – ١٤٨.

د. حازم محمد عتلم – قانون النزاعات المسلحة الدولية – مرجع سابق – ص ٥٣ – ٥٤.

د. محمد عبد المنعم عبد الخالق – الجرائم الدولية – مرجع سابق – ص ٢٢

(1) فيما يتعلق بموقف الشريعة الاسلامية من العدوان انظر بصفة خاصة : محمد أبو زهرة – العلاقات الدولية في الاسلام – دون رقم طبعة – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٤ – بصفة خاصة ص ٥٠ وما بعدها.

محمد أبو زهرة – نظرة الاسلام إلى الحرب – مرجع سابق– ص ١٢ وما بعدها.

د. احسان الهندي – أحكام الحرب والسلام في دولة الاسلام – الطبعة الأولى – منشورات دار النمير دمشق سورية – ١٩٩٣ ص ١٤٧ –١٦٦.

د. حامد سلطان – أحكام القانون الدولي في الشريعة الاسلامية – مرجع سابق – ص ٧٧ – ٨٥ وأيضاً ص ١٥٥–١٦٠

فالعدوان محرم واستخدام القوة لا يكون إلا لرد العدوان والدفاع عن النفس والعقيدة حيث يذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [1] و(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [2]. وهكذا فإن تعرض المسلمون للعدوان هو شرط ليباح لهم استخدام القوة في وجه من عاداهم، وهذا العدوان الذي يجيز للمسلمين استخدام القوة لرده ودفعه قد يتخذ أشكال عدة :

فقد يستهدف العدوان الحيلولة دون نشر الدعوة الاسلامية، حيث أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان رسولاً للعالمين أجمعين وكان عليه تبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى للناس كافة، حيث ورد ذلك في الذكر الحكيم قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[3] و(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [4] وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[5].

ولهذا كان على المسلمين نشر الدعوة الاسلامية في كافة الأصقاع والأرجاء وهي رسالة وتكليف يثاب من يقوم به ويتعرض لاثم عظيم من يقف حائلاً في طريقه، حيث يذكر الله سبحانه

د. حازم محمد عتلم – قانون النزاعات المسلحة الدولية – مرجع سابق – ص ٥٥ – ٦٢.

د. صلاح الدين عامر – مقدمة لدراسة قانون النزاعات المسلحة – مرجع سابق – ص ١٧ – ٢٥.

د. عبد الواحد محمد الفار – الجرائم الدولية وسلطة العقاب عليها – مرجع سابق – ص ١٤٩ – ١٥٥.

الشيخ محمود شلتوت – الاسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب – دون رقم طبعة – مكتبة شيخ الأزهر للشئون العامة – القاهرة ١٩٥١.

(١) سورة البقرة – الآية – ١٩

(٢) سورة الحج – الآيتان ٣٩ – ٤٠.

(٣) سورة سبأ . الآية ٢٨

(٤) سورة الأعراف – الآية ١٥٨

(٥) سورة الصف – الآية ٩.

وتعالى في محكم كتابه (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) [١].

ولا بد من الاشارة طبعاً إلى أن استخدام القوة لنشر الدعوة الاسلامية ليس المراد به هنا هو فرضها بالقوة على الآخرين واكراههم على اتباعها، بل إن هذا يتناقض مع صحيح العقيدة وما ورد ذكره صراحة في القرآن الكريم لقوله تعالى (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [٢]. وبالتالي فأن المراد من استخدام القوة في مثل هذه الحالة هو استخدامها ضد حكام الأقاليم غير الاسلامية الذين يستخدمون العنف والاكراه لمنع غير المسلمين من اعتناق الاسلام اذا شاءوا ذلك[٣].

وأيضاً قد يستهدف المسلمين لعدوان يصيبهم في أرواحهم وأموالهم وعرضهم وشرفهم فحق لهم هنا الدفاع عن نفسهم لرد مثل هذا العدوان، حيث ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[٤] حيث أن فعل الاعتداء يشمل هنا جميع مظاهر العدوان أياً كان شكلها وموضوعها[٥] وهو ما يؤكده قول الرسول

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٥٩

(٢) سورة البقرة – الآية،٢٥٦، وهنا تروي الأحاديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منع رجلا حاول أن يكره بعض ولده على الدخول في الاسلام، كما يروى أن امرأة عجوز جاءت الى عمر بن الخطاب في حاجة لها وكانت غير مسلمة فدعها الى الاسلام، فأبت فتركها عمر وخشي أن يكون في قوله وهو أمير المؤمنين اكراه فاتجه الى ربه ضارعا قائلا (اللهم أرشدت ولم أكره) وتلا قوله تعالى (لا اكراه في الدين فقد تبين الرشد من الغي) انظر في هذا : الشيخ يعلق الشيخ محمد أبو زهرة – نظرة الاسلام الى الحرب – مرجع سابق – ص ٦

(٣) يعلق الشيخ أبو زهرة على هذه الحالة بالقول (ان الدعوة الاسلامية نور لا يحجب فلا بد أن تفتح الأبواب له، وقد وقف الحكام له بالمرصاد يمنعون أن يصل الى رعاياهم فكان لابد من القتال لإزالة الحجرات التي تمنع النور ان يصل ولا تمنع الاضطهاد أن يقع حتى لا تكون فتنة في الدين) انظر الشيخ محمد أبو زهرة – العلاقات الدولية في الاسلام – مرجع سابق – ص ٥٠.

(٤) سورة البقرة – الآية ١٩٤

(٥) وهنا يشير الدكتور احسان الهندي في هذا الصدد إلى أن كلمة – فاعتدوا – الواردة في هذه الآية تبيح رد العدوان وليس ارتكاب عدوان مقابل له، كما أن كلمة – بمثل – وضعت الأساس لمبدأ جوهري هو مبدأ التناسب proportionnalite حيث يقضي هذا المبدأ أن يكون الجزاء من جنس العمل وأنه لا يجب أن

عليه الصلاة : والسلام (من قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد) [١].

وأيضاً حق للمسلمين استخدام القوة لرد العدوان الذي يستهدف فتنة المسلم في دينه حيث ورد في الذكر الحكيم قوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)[٢]، وقوله تعالى (وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)[٣]، والمراد بالفتنة[٤] هنا هو جعل المسلمين يرتدون ويعودون إلى الشرك، وتتحقق الفتنة في جميع الأعمال التي تستهدف فتنة المسلم عن دينه سواء تحقق هذا الهدف أو لم يتحقق، وبهذا تشمل الفتنة جملة أعمال الاضطهاد والتعذيب والاكراه المادي والمعنوي الذي يتعرض له المسلمون في سبيل ردهم عن الاسلام. [٥]

وهكذا نجد أن الإسلام لم يجز القوة إلا لرد العدوان الذي يتعرض له المسلمون والذي قد يتخذ أشكالاً متعددة وصوراً مختلفة وفيما عدا – رد العدوان – لا يجوز شرعاً استخدام القوة لأن الأصل في المسلمين وغيرهم هى السلم لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [٦] وأيضاً قوله تعالى (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ

يتجاوزه من حيث القوة والمقدار، انظر في هذا : د. احسان الهندي – أحكام الحرب والسلام في دولة الاسلام – مرجع سابق – ص ١٥٨.

(١) رواه أحمد وأخرجه أبو داود وصححه الترمذي

(٢) سورة الأنفال – الآية ٣٩

(٣) سورة البقرة – الآية ٢١٧.

(٤) د. احسان الهندي، أحكام الحرب والسلام فى دولة الاسلام – مرجع سابق – ص ١٥٩

(٥) وهنا لا بد من الاشارة إلى أن مثل هذا النص يثير التساؤل عن موقف الدول – الاسلامية – من الاضطهاد الذي يتعرض له المسلمين في العديد من دول العالم بهدف ردهم عن الاسلام (كما جرى في البوسنة والهرسك وكوسوفا، وما يجري في الهند والفلبين وبعض الجمهوريات الروسية)

(٦) سورة البقرة – الآية ٢٠٨.

عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [1]، ويظل هذا قائماً. حتى يقع اعتداء فإذا كان الاعتداء فإن الحرب تكون أمراً لا بد منه رداً للشر بمثله ولتحمي الفضيلة نفسها من الرذيلة[2].

وحتى في هذه الحالات التي أجاز الاسلام فيها استخدام القوة لرد العدوان ودفعه فإننا نجد أنه أحاط استخدام هذه القوة بالعديد من القيود والضمانات التي تستهدف توفير أكبر قدر من الحماية للانسان الذي كرمه الله حيث أوجب الاسلام حسن معاملة الأسرى لقوله تعالى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّه مسكينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) [3] وقوله تعالى أيضاً (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [4].

كما أوجب الاسلام الانذار المسبق للعدو قبل بدء الحرب وفرض أيضاً قيوداً على ممارسة الحرب من حيث الزمان والمكان، كتحريم القتال عند المسجد الحرام إلا اذا شن المشركون على المسلمين الحرب منه لقوله تعالى (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) [5] وَأَيضاً

([1]) الشيخ محمد أبو زهرة، نظرة الاسلام إلى الحرب – مرجع سابق – ص ١٢.

([2]) سورة الانسان – الآية ٨.

([3]) سورة الأنفال – آية ٧٠ – ومراد الاستشهاد بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يعد الأسرى الذين في خيراً بالعفو والمغفرة، ومن هنا فإن المسلمين لا يملكون بعد هذا إلا معاملتهم بأقصى درجة ممكنة من الرحمة والانسانية – د. احسان الهندي – أحكام الحرب والسلام في دولة الاسلام – مرجع سابق – ص ٢٠٥

([4]) حيث أوصى الرسول – صلى الله عليه وسلم – معاذ بن جبل حين أرسله لفتح اليمن قائلاً (لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأ وكم، فإن بدأوا فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل فلئن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت)

مشار إليه في: المبسوط للسرخي – الجزء العاشر – الطبعة الثانية – دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، دون سنة نشر – ص ٣١.

([5]) سورة البقرة الآية – ١٩١

القتال في الأشهر الحرم[1] لقوله تعالى (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2].

وهكذا فإن الاسلام رسالة تنوير وهداية قوامها الحق والعدل، وهو يهدف إلى إعلاء قيمة الانسان وحمايته ليتفرغ للمهمة الأسمى التي أوصاه الله بها، ويعود الفضل للاسلام في إرساء الكثير من القواعد التي لو التزم العالم بها لتجنبت الانسانية ويلات الكثير من الحروب العدوانية التي شهدها العالم عبر عقود طويلة من تاريخه، وهو ما أكده البارون DeTaube الذي ذكر في محاضرة له ألقاها في أكاديمية القانون الدولي في لاهاي (أن أهمية الاسلام عموماً في تطوير الحضارة ضمن حوض البحر الأبيض المتوسط تجعلنا نقبل الاعتراف بأن العالم الاسلامي قد ساهم بتشكيل بعض نظم قانون الحرب وعاداته بين شعوب أوروبا، حيث أن هذه الشعوب وجدت لدى أعدائها الذين ناصبتهم العداء أثناء الحروب الصليبية قواعد جاهزة تتعلق باعلان الحرب والتمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين ومعاملة المرضى والجرحى وأسرى الحرب، ومنع بعض وسائل الإضرار بالعدو..) [3].

المطلب الثانى

مفهوم النظرية الداروينية

إذا انتقلنا إلى ميدان الفكر الاجتماعي والتاريخي كان علينا أن نفرق بين دارون والداروينية فلقد قام آخرون بما لم ينتظر أن يفعله دارون وطبقوا صراحة الأفكار البيولجية الجديدة على مجالات تخصصهم وعلى الأخص في العلوم الاجتماعية.

وكما قال برنارشو أن مؤلف كتاب أصل الأنواع قد توافر له الحظ لـ يرضى كل إنسان لديه فأس يحتاج إلى السن من الاشتراكيين والرأسماليين وأنصار النزعة الإنسانية (اليهومانية) الذين يتغنون بقرابة الإنسان بالحيوانات. كما أرضى أصحاب الاتجاهات العسكرية.

ومع هذا فلم تقتصر الداروينية على تأييد الأهواء التي كانت قد تكونت بالفعل إذ كان لها تأثير قوي في ذاتها. فلقد دعت فوق كل شيء إلى نظرة تطورية إلى المجتمع، وقدمت دعما لفكرتين كانتا

---

(1) ذو القعدة – ذو الحجة – محرم – رجب

(2) سورة التوبة – آية ٥

(3) مشار إليه في: د. احسان الهندي – أحكام الحرب والسلام في دولة الاسلام – مرجع سابق – ص ١٨٧

تتصاعد في أواخر القرن التاسع عشر الأولى فكرة الكيان العضوي الاجتماعي، والثانية هي فكرة الصراع كأداة أساسية للتقدم الاجتماعي وبصفة خاصة في الشئون الدولية.

وسوف نتناول هذا المطلب من خلال فرعين، وذلك على النحو التالى:

الفرع الأول: مدلول النظرية الداروينية

الفرع الثانى: أهم المضامين الفلسفية للنظرية الداروينية

الفرع الأول

مدلول النظرية الداروينية

الطور الحال، وجمعه أطوار وقال تعالى: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) أي ضروباً وأحوال مختلفة.. وقد اتخذ أهل زماننا من هذا الاسم فعلا جديدا، فقالوا: طوّر الشيء نقله من طور إلى طور، وتطور الشيء أي انتقل من طور إلى طور، كل واحد على حده، واشتقوا من فعل طوّر اسم التطوير، ومن فعل تطوّر اسم التطوّر[١].

وتجدر الإشارة أن الإنسان قد بدأ التفكير في نشأة وتطور الكائنات الحية من قديم الزمان[٢].

والتطور في اللغة الفرنسية Evolution وفي اللغة الإنجليزية Evolution وفي اللاتينية[٣] Evolutio. ويعني التطور بصفة عامة التبدل التدريجي والغير محسوس وا والمستمر بتأثير ظروف خارجية[٤].

كما أن التطور نوعان هما: التطور الغير عضوي، والتطور العضوي[٥] ويشمل التطور الغير عضوي التغيرات التي حدثت للأرض منذ نشأتها إلى الآن[١]. أما التطور العضوي فيشمل التغير

---

(١) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، ط ١، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٧٣، جزء ١، ص ٩٣.

(2) ROSTAND (JEAN): La Formation De L'être, histoire des idées sur la Génération, librairie Hachette, 1930,p.7.

بالنسبة لتطور الكائنات الحية هناك الكثير من الآراء والأفكار معروفة منذ زمن بعيد عن رواد التطور في الفكر اليوناني بصفة خاصة (طاليس انكسمندر – امبيدوكليس – أرسطو، الرواقية.....) وكذلك في العصور الوسطى انظر:

- EL FANDI(M.S): Les Principales conceptions de l'évolution, editeure, 1928 ,p.18 et suiv.et p.43 et suiv.

عن مذهب التطور في الشرق العربي وبصفة خاصة إخوان الصفا – ابن خلدون غيرهم انظر: عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، دون تاريخ نشر)، الصفحات ٩ وما بعدها.

(٣) د جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، جزء ١، ص ٢٩٣.

(٤) د. عادل محمد المصري، النشوء والتطور فى الكائنات الحية، الإسكندرية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ٢٠٠٢، ص١.

(٥) د. عادل محمد المصريالمرجع السابق، ص ١

الذي اعترى الكائنات الحية من نبات وحيوان منذ أن بدأت الحياة تظهر على الأرض منذ ملايين السنين إلى وقتنا هذا. وبعبارة أخرى يقصد بالتطور العضوي أنه التغيير التدريجي في صفات الكائنات لمواجهة احتياجات ومتطلبات جديدة لم تكن موجودة ليتمكن الكائن من التأقلم مع مثل هذه الظروف الجديدة، وبهذه الطريقة تنشأ أنواع أو سلالات، وذلك من أنواع أخرى لم تكن موجودة، ولكنها انقرضت لعدم تمكنها من التأقلم[٢].

ولم يظهر مصطلح التطور – أو تقريبا بصياغة غير واضحة – لا عند Lamarck والذي تحدث عن التحولية Transformisme، ولا عند Darwin والذي استخدم صياغة التغيير الذي يعتري أصل السلالات modification avec Descendance فالتمييز التقليدي لمصطلح التطور لم يكن متفق عليه تماماً[٣].

ويعني التطور في الفلسفة الحديثة الانتقال من البسيط إلى المركب ومن المتجانس إلى غير المتجانس، أو من الأكثر تجانساً إلى الأقل تجانسا[٤]. وهو المعنى الذي ذهب إليه هربرت سبنسر بقوله:

والتطور هو إتمام وإكمال المادة، مصحوبا بتبديد للحركة، تنتقل المادة خلاله من حالة تجانس غير معين وغير ملتحم إلى حالة من اللاتجانس المعين والملتحم، بحيث تخضع الحركة المتبقية فيه لتبديل مواز"[٥].

وعلى عكس ذلك الرأي يرى ANDRÉ LALANDE [١] أن الفكرة الرئيسية التي يعمل العقل بحسبها في جميع المجالات والميادين هي أفضلية التشابه والتطابق على الغيرية أن أردنا أن نستخدم

([1]) **CAULLERY (MAURICE) ET DES AUTRES: L'évolotion EN Biologie, Paris, 1929 ,.p.2.**

([٢]) د/ عادل محمد المصري، النشوء والتطور في الكائنات الحية، مرجع سابق، ص ١

([3]) **HOTTOIS (GILBERT): De la renaissance à la postmodernité, une histoire de la philosophie moderne et contemporaine, 3o édition de Bocek & lacier s. a., 2002, p.218.**

([٤]) د/ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٤. نقلا عن

([5]) **EL FANDI (M.S):op.cit.,p.10.**

هربرت سبنسر (١٨٢٠–١٩٠٣): من أهم كتبه مبادئ علم النفس (١٨٥٥) عرض فيه لنظرية التطور في جملتها وأول عرض قام به لفلسفة التطور ظهر في مقال عنوانه «التقدم. قانونه وعلته (١٨٥٧) ذكره دارون في مقدمة كتابه أصل الأنواع «بين الذين سبقوه إلى نظريته.

تعبيرات أفلاطونية.... هكذا نرى أن LALAND يعارض نزعة التطور عند سبنسر بطريق مباشر لأنها تعبر عن تفريق تدريجي بالانتقال من المتجانس» إلى «غير المتجانس كما يعارض الداروينية خاصة عند تطبيقها في مجال الاجتماع، لأنها تفضل في المجال الإنساني الوقوف عند التنافس والصراع من أجل الحياة. ولطالما LALAND عن فكرة الامتحان» La Notion d'examenلأنها في نظره عادلة وإنسانية من فكرة المسابقة» Concours لأنها تقوم على المنافسة وتناسب علوم الحياة أكثر من ميادين الإنسان(٢).

وأوضح الفيلسوف الإنجليزي وعالم الرياضيات برتراند رسل، أن أولى انتصارات المنهج التجريبي كانت في الفلك وأعظمها في العلوم الذرية. وإذا كانت هذه العلوم وتلك تستلزم الرياضيات بحيث لا تقل أهمية الرياضة فيها عن أهمية التجريب، فإن ثمة علوم أخرى ينفرد التجريب بقصب السبق فيها وأهمها علم الحياة، ويعطينا دارون مثالاً نموذجياً على الاستعانة بالمنهج التجريبي بغير حاجة إلى الرياضيات(٣).

ولقد اعتمد دارون بقدر كبير على مشاهداته وملاحظاته، وبخاصة تلك التي جرت في أمريكا الجنوبية، وجذرجالاباجوس إبان رحلته على الباخرة بيجل Beagle 1831-1836. (٤) وعاد إلى

---

(١) **أندريه لالاند: شغل منصب كرسي فلسفة العلوم في جامعة باريس، وله مؤلفات عديدة في الفلسفة. كما أن له معجم فلسفي شهير ظهر بين عامي ١٩٠٠ - ١٩٢٦، ورسالته للدكتوراه تحمل عنوان «الفكرة الموجهة في الذوبان والمقابلة بينها وبين فكرة التطور في منهج العلوم الفيزيقية والأخلاقية عام ١٨٩٨، وقد أعيد نشرها بعنوان الأوهام التطورية سنة ١٩٣١.**

(٢) **LA CROIX(J.): Panorama de la philosophie Française contemporaine, presses Universitaires de France, 1966, pp.200-201.**

(٣) **Russell (BERTRAND): the Scientific outlook, George Allan & Penwin, London, 1934, p.41.**

(4) **DARWIN(CHARLES): De L'origine des espèces, traduction de Royer (Glemenge), 3 édition, Paris, 1934.p.9.**

انظر في نفس المعنى:

-VECCHIO (GIORGIO DEL): philosophiedroit, edition, Dalloz, 2009, p.192 – MAURY

(LILIANE): Les emotions de Darwin À FREUD, presse universitaire de France, 1993, p.15.

إنجلترا مقتنعاً بقابلية الطبيعية للتشكيل إلى ما لانهاية أو بتنوعها بغير حد، وتشابه هو ونيوتن لأنه خلص إلى تفسير مستصوب لفكرته أو لكيف يجرى التطور(١). ولقد ساهمت الداروينية مساهمة قوية في مواصلة الحرب بين العلم واللاهوت وفي مصرع الدين كما يفهم تقليدياً وفي بزوغ أوربا علمانية جديدة(٢).

ولقد أثارت التطورية الغيظ في البداية عندما نشر دارون كتاب أصل الأنواع (١٨٥٩) لأنها عارضت الكثير من أركان العقيدة الدينية التقليدية لاسيما الرؤية المسيحية عن العالم وعن الإنسان والتي كانت مستوحاة من الكتاب المقدس، والذي جاء به أن الله خلق الدواب التي تدب على الأرض والتي تنحدر من نوع خاص بها، كما خلق الماشية على شاكلة أنواعها وأيضا كل ما يزحف على الأرض تبعا لنوعه) وبعبارة أخرى فإن هناك أنواعاً ثابتة خلقت في لحظة من الزمان وأنها جميعا مازالت باقية بعد أن حماها سيدنا نوح من التهلكة. (٣)

ولقد عارض دارون هذه الصورة بنظرية تعتقد ببزوغ سلسلة طويلة من الأنواع الأكثر ارتقاء بمرور الزمن، واستعان بأدلة من آثار الأقدام والحفريات وعظام الحيوانات وعلم البالنتولجيا المقارن (علم الحفريات). واستخلص من: ذلك أن مختلف أنواع الكائنات قد انبثق كل منها عن الآخر، وأن

---

(١) ولقد عبر الأستاذ Julian Huxley عن هذا التشابه بين دارون ونيوتن قائلا:

"He may indeed with some Justice be called the Newton of Biology>

انظر في ذلك:

The Living thoughts library (no.2): The living thoughts of Darwin, pres- ented in a new and revised edition and with a preface by Julian Huxley assisted by James Fisher, Cassell. London ,pp.,1,9.

(٢) فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، الاتصال والتغير فى الأفكار، القرن التاسع عشر، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى، ١٩٨٩، جزء ٣، ص٨٠١.

(3) GOURDON (VINCENT)ET DES AUTRES: Histoire Religieuse, XVI-XIXe siècle, op.cit.p.166.

انظر أيضا:

-DORST (JEAN): «Quelques Réflexion sur la biologie À la Lumière de la foi»>IN Le savant et la foi,op.cit., p.48.

أصل الأنواع عبارة عن مادة دهنية من الجيلي البروتوبلازمي، ونمت الكائنات الدقيقة الحجم من هذه الشذرات البروتوبلازمية بفضل أشعة الشمس، ومنها تطورت مكونة كل الكائنات العضوية[١].

وجاء الجانب الراديكالي من هذه النظرية عندما زعمت أن هذه العملية لم تكن جارية فقط خلال الزمن، ولكنها قائمة على مبدأ تفسيري يمكن إدراكه أنه مبدأ الانتخاب الطبيعي والذي يسميه دارون قانون الانتخاب الطبيعي. la loi de sélection naturelle[٢]

إذ استطاعت الأنواع التي توافرت لها القدرة الصحيحة على التكيف هي وبيئتها إنجاب ذرية ساعدت على الحفاظ على النوع أما الأنواع التي لم تتوافر لها مقومات التكييف المطلوبة اختفت في صراعها من أجل البقاء، وبذلك قد فنى هذا النوع ونشبت حرب متواصلة في الطبيعة في سبيل العيش اتخذت شكل معارك حول الأرض والسيطرة الجنسية والغذاء.

هذا ولقد وافق دارون ومن تبعه مباشرة من علماء التطور بأنه لا يمكن مشاهدة عملية التطور مباشرة بل أنه يمكن استنتاج حدوث التطور المشاهدة المورفيولجية. إذ لا يمكن بل أنه من المستحيل استعادة عملية التطور التي حدثت مثلا في تطور الحصان أو في أي كائن آخر بإجرائها في المعمل كما حدثت في الطبيعة. فالمفروض أن عملية التطور تحدث ببطء شديد تماما بحيث لا يمكن ملاحظة أي تغييرات في الأنواع البرية أثناء دورة حياة أي إنسان[٣].

ولهذا قدر علماء الجيولجيا – وعلى الأخص سير تشارلز ليل– الذي صاحب دارون كتابه مبادئ الجيولجيا ١٨٣٠ معه في رحلته على الباخرة بيجل – ملايين من السنوات بدلا الآلاف كفترة زمنية تثبت نظرية دارون[٤].

([1]) **DARWIN(CHARLES): op.cit., p.II et suiv.**

([2]) **DARWIN(CHARLES): op.cit., pp.13-14.**

انظر في نفس المعنى:

-VECCHIO (GIORGIO DEL) L op.cit., p.193.

([٣]) د. عادل محمد المصري، النشوء والتطور في الكائنات الحية، مرجع سابق، ص٣٠٢،٤٠٢.

([٤]) فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، مرجع سابق، ج٣، ص٨٩.

الفرع الثانى

أهم المضامين الفلسفية للنظرية الداروينية

أولاً: النظرة التطورية للمجتمع:

يلاحظ أن فكرة التطور سواء كانت داروينية أم غير ذلك لم تكن جديدة بأي حال. ولكن دارون أعطى دفعة للفكرة حددت معالمها. فبعد عام ١٨٥٩ لم يقتصر الأمر على تغلغل فكرة التطور في الفكر الاوربي، ولكنها سادته، واصبح من المستحيل تناول أي سؤال من الأسئلة الدائمة بغير إشارة إلى التطور(١).

كما توافق على اعتبار التطور L'évolution قانون علمي، وكنموذج للتقدم العضوي، وذلك لأن مفهوم التطور انتهى إلى مجاوزة لدارون ومبدأه الانتخاب الطبيعي وتلك كانت الداروينية Darvinisme التي وجدت دعماً لأرائها في فكرتي التطور، والانتخاب الطبيعي. (٢)

وتجدر الإشارة إلى أن التطور طبقا لنظرية اصل الأنواع يسري في خط مستقيم en droite ligner. (٣)

ويتبنى كل أنصار الداروينية الاجتماعية التطور أحادي الاتجاه – أي أن التطور الاجتماعي لأي مجتمع يسير في خط مستقيم، وعبر مراحل متشابهة بفعل قوى داخلية وخارجية، ويستخدمونها استخداماً خاصاً في خدمة السياسة والاقتصاد في العالم الغربي. ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه هربرت سبنسر، وقد ذهب أنصار هذا الاتجاه أن حركة التغيير داخل أي مجتمع محكومة بقوى لا يمكن تغيرها أو تبديلها أو التأثير عليها، وهي قوى طبيعية لا مجال لسيطرة الإنسان عليها(٤).

وكانت نظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي هي بكل تأكيد أهم الابتكارات العلمية المفردة في القرن التاسع عشر فبعد أن انقشع ما آثارته من تفاهات الهراء والسخرية أصبح العالم الحي مختلفا فقد غدا عالما يتحرك. أن الخلق ليس ساكنا إنما يتغير مع الزمن بطريقة لا تحدث في العام المادي(٥).

---

(١) فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، ج٣، مرجع سابق، ص٢٩، ٣٩.

(2) MITCHELL(P.CHALMERS):Le Darwinisme et La guerre, traduit de L'anglais par Maurice soldvine, Paris, 1916.p.21.

(3) DARWIN(CHARLES): op.cit., p.14.

(٤) د نبيل السمالوطي الانثروبولوجيا الاجتماعية علم الإنسان. (الدقهلية دون ناشر، ٢٠٠٢) ص ٣٥١-٤٥١

(٥) جاكوب برونوفسكي، التطور الحضاري للإنسان (ارتقاء الإنسان)، ترجمة د/ أحمد مستجير

ولعل أرنست رينان كان أول من تنبه إلى هذا التحول الهام ق في مقدمة رسالته للدكتوراه ١٨٥٠ لقد أدى التقدم العظيم في النقد إلى عن مقولة الكينونة être بمقولة الصيرورة DEVENIR – وأردف رينان قائلا «لقد نظر فيما سبق إلى كل شيء على أنه كينونة، فكنا نتحدث عن الفلسفة والقانون والسياسة والفن والشعر بلغة المطلق أما الآن فإن كل شيء غدا ينظر إليه على أنه في تيار الصيرورة En voie de se Faire [١]

ويدعم هذا القول تماما بزوغ التاريخانية أو الروح التاريخية للقرن التاسع عشر، وتنبأ المؤرخ الفرنسي Thierry في شبابه «بأن التاريخ سيضع طابعه على القرن التاسع عشر، مثلما وضعت الفلسفة طابعها على القرن الثامن عشر»[٢].

وعلى صعيد الفكر القانوني يرى الأستاذ Del Vecchio: أنه تحت تأثير المدرسة التاريخية أصبحت فلسفة القانون لا تعني بالبحث عن أفكار مثالية وقيم عليا، بل أصبحت على العكس إطارها ينصب على تحليل قضايا أساسية واقعية. وبوجه خاص قضية العلاقة بين القانون والمجتمع، مثال على ذلك نجد الأستاذ A.Chvagnari يعلن أن العنصر التاريخي ادمج في علم فلسفة القانون كمبدأ أساسي[٣].

وفي ذات الاتجاه يرى الأستاذ Michel Villey أن الأسلوب التاريخي تقدم تماما وطبيعة الدراسات التاريخية لم تفارق هذا التغيير. فلقد حدث على يد دارون نصر لفكرة التطور في علم الحيوان ومحاولة شرح تطور الأنواع بيولجيا عن طريق الصراع من أجل الحياة، وكان لإعطاء دارون أهمية لعنصر الزمن أنه في نطاق العلوم الاجتماعية راجت فلسفات التاريخ، وعلم الاجتماع الحركي: كومت و ماركس و سبنسر. [٤]

ويعترض بعض علماء المناهج على فكرة وجود قانون التطور التاريخي للإنسانية أو للمجتمعات ومثال ذلك كارل بوبر يجيب بالنفي على التساؤل الذي يطرحه وهو هل يوجد قانون علمي يحكم حركة التطور الاجتماعي؟ فالمذهب التاريخي الذي يحاول التوصل إلى مثل هذا القانون

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب الأعمال الفكرية مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ٧٩٩١)، ص ٨٨١.

(١) نقلا عن فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، ج ٣، مرجع. سابق، ص ٤١

(٢) نقلا عن المرجع السابق، ص ٥١

(3) VECCHIO (GIORGIO DEL): op.cit., p.129, p.163.

(4) VILLEY (MICHEL): Philosophie du droit, Dalloz, 2001.,pp.236-237.

منهج عقيم ومن هنا جاء عنوان كتابه عقم المذهب التاريخي »، ويبرر بوبر» رأيه بأن تطور المجتمع الإنساني عملية تاريخية فريدة، وقد يجوز أن نفترض أن هذه العملية تمضي في طريقها طبقا لأنواع كثيرة من القوانين العلمية مثل قوانين الميكانيكا والكيمياء والوراثة والتفاضل والانتخاب الطبيعي وغيرها. ولكن العبارة التي تصف بها هذه العملية «ليست قانونا وإنما هي قضية تاريخية مخصوصة تختلف بالضرورة عن القانون الكلي الذي تتعلق أحكامه بنظام ثابت ويصدق على كافة العمليات المندرجة تحت نوع معين ولما كان التطور الاجتماعي التاريخي لا يمكن تكراره فإنه لا يمكن التوصل إلى قانون كلي اعتمادا على معرفتنا بحالة واحدة. كذلك لا تمكننا مشاهدة عملية واحدة من التنبؤ بالمستقبل. [١].

وترى الباحثة أن النموذج التطوري في الفكر الانثروبولجي والسيوسيولجي امتد إلى عالم القانون ويمكن أن ننسب الريادة في هذا المضمار للسير هنري مين (١٨٢٢-١٨٨٨). والذي كان أول ممثل للدراسات الانثروبولجية عن طبيعة النظم البدائية والنامية للقانون ولربما اعتبرت نتاجا للمدرسة التاريخية. ولقد دأب مين على الاكتشاف فيما إذا كان نموذج التطور القانوني يمكن أن يستخلص من الدراسات المقارنة للنظم المختلفة، وبوجه أخص القانون الروماني والقانون العام الإنجليزي وما ذهب إليه هو التحقق من قوانين التطور التاريخي، وأدى به ذلك إلى التفرقة بين ما أطلق عليه «المجتمعات الجامدة والمجتمعات المتقدمة.

فالتطور الباكر لكل من النوعين هو تقريباً ذات التطور وهو يتكون وفقا لنظرية مين من مراحل أربعة:

المرحلة الأولى: هي مررحلة تكوين القانون بالتكليف الشخصي الذي أعتقد أنه من وحي إلهي مقدس مثل مقولات قدامي الإغريق وأحكام الملوك الأنجلوسكسون.

المرحلة الثانية: هي المرحلة التي تبلورت فيها التكاليف أو الأوامر في شكل قواعد عرفية.

والمرحلة الثالثة: هي التي قمعت فيها سلطة الحاكم بواسطة الأقليات التي تولت زمام الحكم مثل أخبار روما القديمة.

([1]) POPPER (K.): the Poverty of historicism Routtedge and Kagan, poul- London, 1957.pp.5-10.

انظر للمزيد عن النموذج التطوري في الفكر الانثربولوجي

- DESCOLA(PHILIPPE) ET DES AUTEES: Les idées de L'anthropologie AYMAND colin editeur, Paris, 1988, pp.157-158.

أما المرحلة الرابعة: فهي المرحلة التي ثارت فيها الأغلبية ضد احتكار الأوليجاركيين ونشر القانون على صورة تقنين مدون مثل الألواح الاثني عشر في روما.

ولا تتقدم المجتمعات الجامدة – وفقا لنظرية مين بما يجاوز هذا الحد، في حين أن الظاهرة المميزة للمجتمعات المتقدمة. أنها نتيجة لتطور القانون عن طريق ثلاث وسائل هي المجاز والعدالة والتشريع. [١]

وحري بالذكر أن فلسفة القانون التاريخية والتي سميت بالتطورية». تطورت كرد فعل آخر من ردود فعل القرن التاسع عشر إزاء فكرة القانون الطبيعي، وهي تركز بدرجة أكبر على المجتمع والثقافة لا على الوضعية، وفي ألمانيا اتخذ ذلك شكل للوحدة الثقافية للشعب، وقد دعم ذلك بفكرة أنه كان هناك نمط عضوي كشف عن المصير الكامن للشعب بمرور الوقت. [٢]

ثانيًا– فكرة الكيان العضوي الاجتماعي:

كانت فكرة الكيان العضوي الاجتماعي الفكرة الثانية التي ساعدت الداروينية على النهوض بها أي النظر إلى السياسة على غرار الكائن العضوي البيولجي، وتصور المجتمع لا كمجرد شيء يتطور، وإنما كشيء قادر على العمل بنجاح بحكم أنه كل حق فقط. أي كشيء أكثر من جمع المتناثرات لوحدات فردية متعددة. وأكدت فكرة الكيان العضوي الاجتماعي عادة دور الدولة – ومع ذلك فإنها لم تفعل ذلك في مذهب سبنسر – أو المجتمع الجماعي الذي لا يلزم أن يكون أصيلا أو أسمى من الفرد، ولكن له أهمية بكل وضوح لنهوض الفرد، وضروري لبقاء الجماعة[٣].

---

(١) دياس فلسفة القانون، أشهر مذاهب الفلسفة عن القانون الوضعية – النظرية البحتة – التاريخية، ترجمة هنري رياض مراجعة عبد العزيز صفوت (بيروت – دار الجيل – دون تاريخ ص٨٥١، ٩٥١

(٢) د. السيد العربي حسن، القانون والمجتمع، مدخل إلى علم الاجتماع القانوني عند ماكس فيبر (القاهرة: دار النهضة العربية، ٥٩٩١) ص ١١، ٢١

(٣) د. فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، جزء ٣ مرجع سابق، ص٨١١. قديما نظر أفلاطون إلى الدولة على أنها إنسان في حجم كبير»، وأسس الطبقات الثلاث لدولته المثالية على الرابطة بين أجزاء الروح. ويعتقد البعض أنه يمكن التعرف في جسم الدولة على أجزاء الإنسان الفرد. ويرى أرسطو بدوره أن أعلى مراتب الخير هيا السعادة دة التي تولدها الفضيلة أن الدولة ضرورة، لا تنحصر في مجرد تبعية، أي ارتباط وقتي لتحقيق هدف معين بل تسموا إلى وحدة عضوية كاملة تهدف إلى الفضيلة والسعادة العالمية فلا يمكن تصور يد منفصلة عن الجسد وكذلك يتعذر تصور الفرد من. غير الدولة. انظر في ذلك:

–VECCHIO (GIORGIO DEL): op.cit., pp.45–46 et p.349.

كما كانت فكرة الكيان العضوي الاجتماعي – أحياناً – تحمل في طياتها الاعتقاد بالتفاوت الإنساني الاجتماعي، ولكن الإيمان بها لم يكن حكراً للمحافظين السياسيين (كالقوميين (المتكاملين) في ألمانيا وفرنسا، وتبني هذه الفكرة الاشتراكيون وبخاصة أنصار التطور والسلالة الجديدة من الليبراليين التي رأسها في إنجلترا فيلسوف أكسفورد توماس هيل جرين وانتشرت مثل هذه الأفكار لأن العصر كان بحاجة لمجتمع مركزي التنظيم يكفل التشريع الاجتماعي أو لكي تصبح الغايات القومية أكثر تأثيراً[١].

وعلى سبيل المثال كانت القومية الألمانية وحدة بيولجية Unité biologique وصلت إلى هذه المرحلة النقدية من تطورها. كما تميزت القومية الألمانية بمنزلة أعلى سمو على كل القوميات الأخرى على الأرض. وهي منزلة ليس من السهل تحديدها ولكنها اكتملت وتحسنت تماما بلغة السلالة.

ولقد وضع كولريدج في مقابل خداع الآلة. الفكرة الصحيحة للدولة والتي وصفها بأنها وحدة أخلاقية أو كل عضوي». أي أن كولريدج قد اعتقد أن الدولة أو المجتمع أقرب شبهاً بالكائن العضوي أكثر فالدستور الإنجليزي على سبيل المثال لم يصنع مثلما تصنع الآلة. أنه نما مثلما ينمو الكائن العضوي في فترة من الزمان وتشبه الدولة الكائن العضوي لأنها تتألف ليس من وحدات ذرية تسخر كل وحدة لتحقيق مصالحها الأنانية ولكن من أجزاء عضوية، ولقد قيل في التاريخ أن المكونات العضوية هي الملك والكنيسة والملكية الفردية، ويشارك كل طرف من هذه الأطراف بطرائق مختلفة في حياة الكل[٢].

كما ألهمت الأفكار الداروينية FRÉDÉRIC NIETZSCHÉ (1844–1900) لإبداع تصنيف البشرية إلى أنواع (إنسان روحي، وإنسان اجتماعي، وإنسان بيولجي) وجعل الإنسان الخارق Les Surhommes في مرتبة المثال والكمال، وطرح NIETZSCHE فكرة الصراع من أجل البقاء باعتبارها جوهر العلاقات الإنسانية بل وحتى العلاقات الطبقية وتحدث عن عدم تقبله المبدئي للشفقة ومساعدة الضعفاء، وطبقا لـ ARTHUR DE GOBINEAU الإنسان يعرف بالعرق كما أنه

---

(١) فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، ج ٣، مرجع سابق، ص ٨١١، ٩١١.

قرب هذا المعنى:

–VECCHIO (GIORGIO DEL): op.cit., pp.348–349.

(٢) فرانكلين – ل – باومر الفكر الأوربي الحديث. سابق، ص ٧٣.

اتبع نظام متسلسل للأنواع الإنسانية وكان الفرع الأعلى منزلة الفرع الجرماني والذي يمثل الفرع النقي (LA BRANCHE ARYENNE) [١].

ولم تبلغ الحقيقة البيولوجية للعضوية ذروتها إلا مع طموحات VACHER DE LAPOUGE والذي أسس علم جديد «علم النفس الإنساني L'anthroposociologie) وكان ذلك في مؤلفه الذي ظهر عام ١٨٩٩ تحت عنوان النقاء ودوره الاجتماعي، مستلهما في ذلك مبدأ دارون في الصراع من أجل البقاء. كما اقترح تعريف العرق بعلم الملامح الجسدية MORPHOLOGIE PHYSIQUE LA وذلك كما هي مركبة. فالعرق النقي – الأسياد – يتميز بطول كبير، شعر، أشقر، جمجمة طويلة، وعريضة، الأقل في الصفات السالف ذكرها يشكلون جنس العبيد[٢]. والواقع أن تلك العنصرية لم تكن حكراً على ألمانيا ولكنها صاحبت كل القوميات الأيدلوجية. ففرنسا مثلا على الرغم من مفهومها ضد – القومية لم تكن بمنأى عن ذلك. فمعاداة السامية L'antisémitisme كانت تشكل جوهر في فرنسا.

وهكذا نجد أن التفسيرات العضوية للداروينية والصدام الثقافي للمستعمرات أدى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انقلاب رأسا على عقب للعلاقة ما بين القومية والعرق والذي أصبح مسايراً للحقيقة العرقية البيولجية Biologico – éthnique حيث إن القومية لم تكن على الأكثر إلا صياغة تقريبية كما أن الشغف بالعنصرية غذى الإرادة على تقديم أساس علمي (مزعوم) للقوميات الأيدلوجية[٣].

كما أن المدرسة العرقية في القانون – والتي كانت سائدة في ألمانيا الاشتراكية الوطنية بزعامة هتلر استمدت من التفاسير البيولجية الفكرة بأن القانون يورث عن طريق الدم فالقانون يجب: (أ) أن يوظف لخدمة أغراض الدولة وسياستها، (ب) ويساعد في حفظ طهارة العرق، لأن الدولة لن تكون قوية ما لم يكن عرقها صافيا، وكان ذلك هو التبرير الذي قدم لاضطهاد اليهود في ألمانيا. (جـ) هوجم القانون الصادر في عام ١٩٠٠ على أساس أن أصوله مستمدة من مجموعة جوستنيان للقانون الروماني. ففضلا أيضا على أنه شرقي نظام أجنبي هوجم Oriental و«يهودي» في أصله،

---

(1) **DELACAMPAGNE (CHRISTIAN): Une histoire du racisme, preface de Laure Adler, librairie générale française, 2000 Pour la présente éditio p.159**

(2) **DELACAMPAGNE (CHRISTIAN): op.cit., p.168.**

(3) **DELACAMPAGNE (CHRISTIAN): op.cit.,p.168.**

انظر أيضا:

CHABOT(JEAN– LUC): op.cit, p.48

(د) والنظام الدولي الوحيد الذي يمكن أن يتسامح. معه هو النظام ذو العلاقة بالشعوب الجرمانية Nordic One أي الذي يقوم على رابطة الدم Blood Tie. ولذلك لم تجد عصبة الأم احترامًا[١].

ولنفس الأسباب المشار إليها تواً نجد أن الفقيه الألماني Thibaut كان قد أصدر كتاباً عام ١٨١٤ بعنوان الحاجة إلى قانون مدني عام لألمانيا» اقترح فيه توحيد جميع القوانين لمختلف الولايات الألمانية من أجل وضع تقنين موحد Un seul code وطالب بعقد مؤتمر عام من فقهاء القانون وممارسيه يتولى وضع هذا القانون مادام مجرد تعديل التشريعات المحلية لا يحقق هذا الهدف ويتنافى مع الاتجاه السائد في ألمانيا نحو الوحدة السياسية التي تتطلب أولاً وأساساً وحدة الروح الوطنية[٢].

ثالثًا: فكرة الصراع:

أ- مفهوم الصراع:

تعتبر ظاهرة الصراع إحدى الحقائق الثابتة في واقع الإنسان والجماعة وعلى كافة مستويات الوجود البشري، والصراع نشاط موجود في كل مكان إلا أن ما نعنيه في مجال البحث هو الدعم البيولجي لنظرية الصراع. فلقد استطاع البيولوجيون إحراز تقدم ملموس في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. حيث تشكلت خلال تلك الفترة الخلية الأولى لعلم البيولجيا[٣].

ويرى الأستاذ R.Anthony أن النظرية التي تجعل من القوة الأساس البيولجي لقانون تعتمد على الفرضين التاليين:

- التطور حركة لكل تقدم ورقي

---

(١) دياس، فلسفة القانون أشهر مذاهب الفلسفة عن القانون، مرجع سابق، ص٦٥١،٧٥١

(2) VECCHIO(GIORGIO DEL): op.cit.,p.137.

(٣) د. أحمد فؤاد،رسلان نظرية الصراع الدولي دراسة في تطور الأسرة الدولية المعاصرة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٦٨٩١ ص ٧١. ويلاحظ أن فكرة الصراع عرفها كل من الأفراد والجماعات في كافة الأزمنة وعبر جميع الحضارات فالفكر الصيني والهندي القديم تعرض للقضية، والفكر الهليني عالجها ابتداء من هيراقليطس وحتى السفسطائيون، وقد انتقل مذهب السفسطائيون في الصراع إلى المدرسة الابيقورية. كما أن بوليب أول مفكر تناول بالدراسة الجدية ظاهرة الصراع، كما قدم الفكر الإسلامي العربي على يد ابن خلدون أول نظرية متكاملة في الصراع تقوم على مفهوم العصبية والصراع بين البدو والحضر، وفي العصر الحديث نجد ميكافيلي هيوم، برجسون هيجل، والاقتصاديون الكلاسيك، ماركس، شارك كل منهم في تطور نظرية الصراع انظر في ذلك: د. أحمد فؤاد رسلان، مرجع سابق، ص ٤-٤٢

- الانتخاب الذي ينتج صراعات يشكل العامل الجوهري للتطور[١].

ولقد استعارت النظرية البيولجية نظرية الصراع عن مدرسة الاقتصاديين الكلاسيك، وبصفة خاصة أفكار مالتوس التي كانت بمثابة المحرك الأول للمدرسة البيولجية في القرن التاسع عشر وقام دارون بتفسير عملية التطور تحت تأثير نظرية مالتوس وهو ما أشار إليه دارون صراحة في مؤلفه أصل الأنواع في الفصل الثالث وذلك بقوله:

«C'est une généralization de la loi de Malthus au Règne organ que tout entire>>.

واهتم دارون اهتماما كبيراً بالتنوع الذي يعتري السلالات الحيوانية ومنها استمد فكرته عن الصراع من أجل الوجود، والبقاء للأصلح[٢].

(ب) الصراع وظاهرة الحرب

هناك بوجه عام اتجاه لإدماج الحرب في جملة ظواهر الخلاف والصراع، واعتبارها حالة خاصة للصراع العام. من ذلك الأستاذ R. Anthony والذي يرى أن الصراع من أجل الحياة ربما يفهم عن طريقين:

الأول: بمعنى خاص ومحدد وضيق ويعني المعركة (القتال) بالمعنى الدقيق نتيجة للصراع الحيوي وهذا ما نراه يؤخذ في الاعتبار حتى الآن.

الثاني: بمعنى واسع وأكثر إبهاماً حيث أننا نستطيع أن نصف مجازاً الصراع الحيوي البسيط بدون معركة[٣].

ولكن الأستاذ جاستون بوتول يرى أن عمومية هذه الفكرة ذاتها، تؤدي إلى تعقيد المسألة بدلا من توضيحها وبالانتقال من فكرة إلى أخرى و من توسع إلى توسع، سوف ينتهي بنا الأمر إلى وضع لافتة «صراع» على أشد الأفعال تبايناً واختلافاً، ومن ثم سوف نقول أن الهضم هو صراع المعدة ضد الأطعمة، وأن الحرث هو صراع الفلاح ضد الأرض، وأن البحث العلمي ليس سوى

---

(1) **ANTHONY (R.): La force et Le droit, librairie Felix Alcan., Paris, 1917,p.188.**

(2) **DARWIN(CHARLES): op.cit., chp,III.p77.**

(3) **ANTHONY (R.): La force et Le droit, op.cit.,p149.**

نضال بين الطالب، والمعرفة وفي أغلب الأحيان تبدو كلمة صراع مختلطة أيضا بكلمة جهد، وتمثل العقبة العدو. [١]

وعلى ذلك فإن أول تمييز يمكن عمله بين الحرب، وأشكال الصراع الأخرى هو أنه يمكن لهذه الأخيرة أن تحدث ضد أشياء لا حياة فيها أو ضد خصوم لا شعور لهم، أما الحرب فتفترض على العكس وجود عدو نشيط منظم وتتضمن تبادل الفعل الإرادي. وقد عملت نظريات دارون ولامارك عن تطور الأنواع، الشيء الكثير لإشاعة هذا النوع من الخلط إذ أنها تبحث في جملتها وبدون تمييز تقريبا كل العقبات التي يجب على النوع أن يتخطاها لأجل البقاء والاستمرار[٢].

كما أن الداروينية – لأسباب غير خلقية قد شجعت تشجيعا قويا الفكرة التي نمت بالفعل في عصر السياسة الواقعية والإمبريالية التي اتخذت شعارًا لها أن الحرب قانون العالم الاجتماعي[٣] ولقد أدخلت هذه النظرية الزائفة بعض الاستعارات من مبدأ دارون عن الانتخاب الطبيعي، وأن البقاء للأصلح، وأعتقد دعاة هذه النظرية أن الأمم تقف على خط أفقي. الأنواع، وبالتالي فإن الحروب بين الأمم جانب آخر المبدأ الصراع من أجل البقاء، وهكذا أصبحت الحروب، وأصبح الصراع – من وجهة نظرهم – هو الموضوع الحقيقي للتاريخ[٤].

ومن بين القائلين بهذه المذاهب نجد مدافعين مخلصين يتنبأن عن قناعة بأن الحرب سوف تزداد تحسن ومثال على ذلك R.S.Steinmetz المدافع «العلمي» عن الحرب الذي يرى أن الحرب لن تختفي ويجب ألا تختفي، ويقول Steinmetz بتفسير رأي هيجل تقريباً عندما يقول: يأتي النصر نتيجة للتركيب الداخلي للشعوب أثناء الحرب. فالحرب هي النهج الأساسي للانتخاب الجمعي، وهي صورة الانتخاب التي تختص بها الإنسانية. المحك للأمم، وقد تكون شفقة نحو الضعفاء إذا أردنا، ولكن فالحرب هي لا مكان إلا للأقوياء»[٥]

---

(١) جاستون بوتول الحرب والمجتمع، تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية، ترجمة / عباس الشربيي مراجعة وتقديم د. محمد علي محمد (بيروت: دار النهضة العربية (٣٨٩١ ص٥٤، ٦٤. انظر أيضا: جرج– كاشمان، لماذا تنشب الحروب؟، ترجمة د/ أحمد حمدي محمود (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني ٢٤٢ الجزء الأول، ٦٩٩١)، ص ٤٤–٩٤

(٢) جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص.٦٤.

(٣) فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، مرجع سابق، ج٣، ص١٢١،٠٢١

(٤) د/ نيفين جمعة علم الدين فلسفة التاريخ عند أرنولد توبيني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩١) ص ٠١٩

(٥) نقلا عن جاستون بوتول الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص ٢٤

كما أن Von Bernhardi يرى أن القانون الطبيعي لكل القوانين الطبيعية الأخرى تستطيع أن تختزله في قانون الصراع، ويرى أيضاً أنه منذ الظهور الأول للحياة الحرب كانت القاعدة لكل تطور سليم الصراع لم يكن فقط مبدأ هدام ولكن أيضاً مبدأ يدعم الحياة. فالقانون الأكثر قوة يسيطر أينما كان، وهذا يبدو جلياً عندما تتحقق شروط الأكثر أفضلية للحياة، ويخسر الأكثر ضعفا »، وعلى هذا المنوال كان رأي Nietzshé فإن إعجاب جورج سورل بالحرب وبصورة أدق الصراع، قد أملته في معظمه كراهيته للأخلاق المسيحية التي يحكم عليها بأنها منافية للبيولجيا، ويمجد جورج سورل صراع الجماهير والحرب الأهلية التي تقتلع الرأسمالية، وكذلك الحرب المزمنة التي تستأصل شأفة المسيحية[١].

فلا غرور إذ قال برنارشو بعد ذلك بسنوات بمناسبة الحرب العالمية الأولى أن علم الاجتماع على الطريقة الداروينية قد أحدث كارثة أوربية ولم يكن دارون نفسه مسئولا مسئولية مباشرة عن ذلك، ولم يقل شو أيضا ذلك. أن بعض من مريدي دارون وحواريه قد جاءوا بداروينية تجاوزت دارون، وبذلك روجوا للهيب المنافسة الدولية والحرب[٢].

(جـ) الصراع والكفاح في سبيل القانون

كان لآراء دارون أثراً واضحاً على مذهب يرنج غير أن هناك فارقاً جوهرياً بين الصراع من أجل الحياة لدى دارون والكفاح في سبيل القانون لدى يرنج[٣].

حيث يرى أن حفظ الأجناس المميزة في الصراع من أجل الحياة يتم بطريقة تلقائية ميكانيكية، بناء على قواعد السببية. إن دارون نفسه صريح في ذلك فهو في الواقع يقر بأن عبارة الاختيار الطبيعي هى فى الواقع غير دقيقة لأن الأمر لا يتعلق باختيار إرادي، بيد أن هذه العبارة تستخدم

---

(١) جاستون بوتول الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص.٣٤. ولكن الفلسفة الوحيدة التي طبقت عبر القرون ودون توقف والتي تدعو إلى الفلسفة الصينية فبقول كونفوشيوس في عجب أن القائد العظيم. الذي لا يحب الحرب، ولا يميل إلى الثأر ولا يولغ بشيء ما. المرجع السابق نفس المصدر، ص.٨٢. كما نذكر أيضا من بين علماء الاجتماع، وغيرهم الغارقين في القدرية، والقسوة البيولجية» عن طريق تطبيق مبادئ دارون المتعلقة بالصراع على الحياة وإبادة الضعفاء هربرت سبنسر، أوجست كومت المرجع السابق ص ٩٣ وما بعدها.

(٢) فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، مرجع سابق، ص٣٢١. انظر في نفس المعنى:
– MITCHELL(P.CHALMERS): op.cit.,p.166.

(٣) د ثروت أنيس الأسيوطي، نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها (دراسة في سوسيولجيا الفكر القانوني). (القاهرة: مطبعة جامعة عين شمس (٧٦٩١) ص ٥٣.

للاقتصاد في التعبير[١]. أن جوهر الاختيار سببي، بل حتى في الحالات التي يتم فيها الاختيار عن الإنسان يبرز دارون ذلك النوع من الاختيار الذي يمكن أن يسمى " غير واع، والذي ينجم عن رغبة كل فرد في أن يحوز ويربي أجود الحيوانات، لكي يحصل مثلا على أحسن كلاب صيد دون أن يكون هدفه الدقيق تطوير جنس الكلاب[٢].

على العكس من ذلك مذهب يرنج عن الكفاح في سبيل القانون، الكفاح الواعي تجاه هدف معين فبدلا من فكرة السببية الميكانيكية لدى دارون يأخذ يرنج بالسببية الهدفية الموجهة نحو غاية[٣].

وحري بالذكر إلى أن هناك تيارات أخرى تبدو ذات صلة بنشأة فكرة الكفاح في مجال الفلسفة ديالكتيكية هيجل وماركس، وعلى المستوى الوطني كفاح بسمارك وانتصاراته العسكرية[٤].

ولكن ما هو الدور الذي اضطلع به يرنج في نقل فكرة الكفاح إلى عالم القانون؟

يمكن الإجابة بإيجاز على النحو التالي:

- **الكفاح في سبيل القانون:** أن غاية القانون هي السلام، وسبيله إلى الكفاح أن القانون تتربص به قوى السوء، فيجب أن يستعد للصدام المحتوم. إن حياة القانون كفاح.. كفاح الشعوب كفاح السلطات كفاح الطبقات... كفاح الأفراد.
- **الكفاح في سبيل الحق:** ثم ينتقل يرنج من الكفاح في سبيل القانون إلى الكفاح في سبيل الحق. أن هذا الكفاح حتمي، لأن كل مصلحة لصاحب الحق في تأكيد حقه، تقابلها مصلحة الآخرين في إنكاره أن الحرب والتمرد والثورة، والسحل، والمبارزة في القرون الوسطى، والدفاع الشرعي، والدعوى المدنية في العصور الحديثة هي للكفاح في سبيل الحق[٥].

([1]) DARWIN (CHARLES): op.cit.,pp.94-95

([2]) IBID., pp.44-45.

([٣]) د/ ثروت أنيس الأسيوطي، نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها، مرجع سابق، ص٦٣، ٦٠١.

([4]) VILLEY (MICHEL): Philosophie de droit,p.237.

([٥]) انظر في ذلك كله / ثروت أنيس الأسيوطي، نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها، مرجع سابق، ص٠٣،٢٣.
انظر أيضا في نفس المعني: - د/ ثروت أنيس الأسيوطي، عدالة السماء
مجلة القانون والاقتصاد، العدد الأول، الـ ٧٣ مطبعة جامعة القاهرة، ٧٦٩١، ص ٠٣.

غير أن مذهب يرنج تعرض للنقد قيل إنه يبالغ في أهمية الدور الذي يقوم به العنصر الإرادي في تكوين القانون وإنه لا ينطبق على كل القوانين أو الجماعات فالقانون لا ينشأ عن طريق الصراع وحده). وأضيف أنه يوجد قانون أول سابقا على كل كفاح تكون دون صراع، لعدم وجود نظام سالف عليهم يتصارع معه. [1]

(1) د/ ثروت أنيس الأسيوطي، نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها، مرجع سابق، ص ٩٣، ٠٤، ٩٠١، ٠١١.

المبحث الثانى
مدى تأثير النظرية الداروينية
على فكرة العدوان

تمهيد وتقسيم:

يقصد بالواقعية بوجه عام في المعنى الفلسفي الشائع المذاهب التي ترفض كل ما هو سابق أو مسلم وترى اليقين فقط من العلوم التجريبية، وإدراك الواقع على النحو المتقدم هو وحده الأمر المثمر في تقدير هذه المذاهب. هذه الاتجاهات في صعيد واحد لا يفيد أبدا التآلف فيما بينها. وإنما يشير فقط إلى أنها ترفض كلها النموذج الثابت والأبدي المعدل المستخلص من العقل المجرد والمفروض بالبداهة على كل بيئة وفي كل زمان.

كما أن القانون من وجه نظر هذه المدارس هو مجموعة القواعد السارية في بلد معين وفي زمن بذاته، وعلى الباحث أن يهتم بدراسة هذا القانون كما كما أن العلم القانوني عند بعض فلاسفة هذا الاتجاه لا يجوز أن يصدر تقييما للقواعد القانونية.

وإذا كان ذلك هو الاتجاه العام للمدارس الواقعية إلا أنه في إطار هذا الاتجاه تنوعت المواقف والأفكار، واتخذت الواقعية أشكالاً مختلفة فيلسوف الآخر، ولن تتناول كل الاتجاهات الواقعية في أصولها وفروعها ولكننا سنقف عند بعض الاتجاهات الرئيسية، والمرتبطة بالنظرية الداروينية والتى تؤصل لفكرة العدوان وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: مدى تأثير النظريات الداروينية على الواقعية السياسية والاستبدادية.

المطلب الثانى: بيولوجيا التطور الدولى.

المطلب الأول
مدى تأثير النظرية الداروينية
على الواقعية السياسية والاستبدادية

سوف نتناول هذا المطلب من خلال فرعين، وذلك على النحو التالى:

الفرع الأول: مدى تأثير النظرية الداروينية على الواقعية السياسية

الفرع الثانى: مدى تأثير النظرية الداروينية على الواقعية الاستبدادية

الفرع الأول
مدى تأثير النظرية الداروينية
على الواقعية السياسية

تعتبر المدرسة الواقعية من مدارس العلاقات الدولية التي اهتمت بالواقع الفعلي. فهي ترى أن الدولة هي الوحدة الأساسية للنظم أي هي الفاعل الوحيد على المسرح الدولي، وتقول أن هذا العالم هو عالم الصراع والحرب[١]. والنظرية الواقعية تعتبر نفسها أكثر النظريات اتصالا بالواقع الدولي وتعبيراً عن أوضاعه ومن دعامتها البارزيين (Morgenthau) [٢].

ولقد أسس Morgenthau نظريته في السياسة الدولية على فرض الدولة المستمر نحو حماية وتنمية المصالح القومية. وهذا الهدف هو بمثابة القوى المحركة الرئيسية لسياسة الدولة الخارجية، وحجر الزاوية في السياسة الدولية والدولة من خلال سعيها لتنفيذ سياستها الخارجية تواجه التحدي المتمثل في كيف يمكن أن نصل إلى تحقيق الدرجة القصوى من الحماية لمصالحها القومية في ظروف الحاضر والمستقبل، ويرى أن السبيل المضمون إلى ذلك لا يكون إلا بمضاعفة الدولة لمواردها من القوى والمصلحة القومية والتي تعد في تقدير Morgenthau هي مرادف وقرين لقوة الدولة[٣].

([1]) MORGENTHAU(HANS): «Politics among Nations>> the struggle for pwer and peace>> Chapter one http// weber.ucsd.edu/mhiscox/240.htm

([٢]) د جهاد عودة وآخرين، العلاقات الدولية (القاهرة: مطبعة التقوى ٢٠٠٤) ص٢

([٣]) د/ أحمد فؤاد رسلان، نظرية الصراع الدولي، دراسة فى تطور الأسرة الدولية المعاصرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص٨٢٢

وجدير بالإشارة إلى أن Morgenthau اقتبس مفهوم القوة من النظريات الفلسفية للقرن التاسع عشر والتي تناولت بالتحديد ظاهرة الصراع البشري والتي قامت على افتراض أن الدافع الغريزي الذي يحرك الصراع على القوة من أجل البقاء ومقابلة التحدي وإثبات الإنسان دوما هو الذات[١].

وتُعد دعامتا التحليل في النظرية الواقعية Realist Theory ر Morgenthau فكرة المصلحة Interest، وفكرة القوة Power في مفهوم هذه النظرية تتحد في إطار القوة التي تتحد بدورها في نطاق ما يسميه Morgenthau بفكرة التأثير أو السيطرة. وبتحديد آخر فإن القوة السياسية Political Power التي تعنيها هذه النظرية الواقعية هي مدى التأثير النسبي الذي تمارسه الدول في علاقتها المتبادلة، وهي بذلك لا يمكن أن تكون مرادفاً لعنف بإشكاله المادية والعسكرية وإنها أوسع نطاقا بكثير[٢]. ومن هنا فليس بغريب أن نرى اتجاه يرى أن موضوع علم السياسة هو دراسة القوة، وعلم السياسة علم امبريقي تجريبي[٣].

وجدير بالإشارة إلى أن ربط المعرفة السياسية بفكرة القوة باعتبارها جوهر علم السياسة ليس بجديد ولقد ذكرنا في موضع سابق من البحث.. أمثال المفكرين السياسيين الواقعين من أمثال ميكيافلي في كتابه الأمير The Prince وتوماس هوبز في كتابه الأخطبوط Levigthan.

كما يلاحظ أن فلاسفة السياسة الواقعيين وان اشتركوا مع علماء السياسة الامبريقيين في أن كل منهما يبدأ من الواقع.

([1]) BATTISTELLA (DARIO): Théories des relations internationals 2e édition revue et augmentee, presses de la fondation national des sciences politiques, 2006, p.116.

([٢]) د جهاد عودة وآخرين العلاقات الدولية، مرجع سابق، ص ٠١.

وانظر أيضا:

-CLIPIN (ROBERT): The political Economy of International Relation, Princeton university press 1987,p.(263-305).

مشار إليه في نفس المصدر لـ د/ جهاد عودة

([٣]) فاروق يوسف أحمد، قواعد علم السياسة، اقتراب غير تقليدي من الظاهرة السياسية (القاهرة: مكتبة عين شمس ٣ (٨٨٩١) ص٨٢. انظر - ميكيافيلي (٩٦٤١-٧٧٥١) صاحب كتاب الأمير، ترجمة للإنجليزية بواسطة Marriott..، ومنشور على شبكة المعلومات الدولية

انظر المرجع http://pages.globetrotter.net/pcbcr/ prince.html.

إلا أن فلاسفة السياسة الواقعيين كانون يهدفون إلى ما يجب أن تكون عليه الأمور Ce qui doit انطلاقاً être على أساس أن تصوير قواعد العمل الواجب الالتزام بها | هذا الواقع. أما علماء السياسة الامبريقيون المحدثون فإنهم يهتمون بالتحليل العلمي لروابط ذلك الواقع على أساس موضوعي (Ce qui est) بقصد تفسير ووضع القوانين العلمية التي تحكم سلوكه»[١].

على الرغم من أهمية القوة بمفهومها الشامل في علاقات الدول المتبادلة إلا أن نظرية Morgenthau بها أوجه قصور حيث أن النظرية الواقعية أخفقت في تحديد المفاهيم المختلفة، القوة والتميز بين القوة التي تأتي كنتاج سياسي، والقوة التي هي مجرد أداة، والقوة التي تؤثر كدافع محرك فكل واحدة هذه المفاهيم يفسر ظواهر، ويرتب نتائج، ويبرز حقائق تختلف في طبيعتها ومضمونها عن بعضها البعض ولكن Morgenthau يبرمجها في مفهوم واحد، وهو أمر لا يفي بأغراض التحليل المتعمق لكافة أبعاد الظاهرة وبحث مختلف تأثيراتها الدولية[٢].

---

(١) راجع

BAUDOUIN (JEAN): Introduction À La Science politique, édition Dalloz2007, p.6.

قارن أيضا: د/ فاروق يوسف أحمد قواعد علم السياسة، مرجع سابق، ص٨٢،٩٢.

(٢) د جهاد عودة وآخرين، العلاقات الدولية، مرجع سابق، ص ٦١، ٧١.

الفرع الثانى
مدى تأثير النظرية الداروينية
على الواقعية الاستبدادية

لا يتميز القرن التاسع عشر – دون شك – بيقظة القوميات بل توسع القوميات وأغلب الحركات الثورية التي ظهرت بين (١٨١٥-١٨٤٨) في إيطاليا وفي ألمانيا، وفي بولونيا، وفي الإمبراطورية النمساوية البلغارية كانت ذات إلهام مزدوج ليبرالي وقومي. [١]

ونشأت فلسفة جديدة تربط روح القانون بروح الأمة، وهاجمت الديمقراطية الفردية التي سادت في القرن التاسع عشر بزعم أنها قضت على معنى الجماعة الذي ينبغي أن يسود، واستثارت هذه الفلسفة القيم الجماعية للشعب والأمة، وأعطت للدولة كل الحقوق على الفرد بلا حدود فالدولة مطلقة المعني، والفرد والجماعات ليس لهم سوى كيان نسبي، ومن هنا نشأت الدولة المطلقة التي تحتكر كل شيء وتستأثر به[٢].

ويمكن القول أن مثل هذه النظرة ترتفع بالدولة إلى قمة الاستئثار بسائر الأفراد وغني عن البيان أنها لا تعبأ بما يسمى بالقانون الطبيعي بل ولا تحفل أيضاً بالقانون الوضعي[٣].

ويلاحظ أنه في اللغة الدارجة تدل الفاشية ليس فقط على عقيدة في إيطاليا، ولكن أيضاً على عقيدة في ألمانيا الهتلرية وفي كل الأنظمة ذات الاتجاه المشابه نوعا ما أسبانيا فرانكو برتغال،سالازار ارجنتين بيرون..... ولكن من الأفضل إطلاق كلمة فاشية على إيطاليا موسوليني، واستعمال كلمة القومية الاشتراكية عندما يتعلق الأمر بألمانيا الهتلرية[٤].

الفاشية:

أكد موسوليني أن الفاشية هي فلسفة وإن هذه الفلسفة كل شيء روحية الدولة، قوة ولكنها قوة روحية، وهو ايضا يدين صراع الطبقات وكتب الفاشية تناقض الاشتراكية التي تجمد الحركة

([1]) TOUCHARD (JEAN): Histoire des idées politiques, tome2, op.cit., pp.534-535.

([٢]) د/ شمس الدين الوكيل نظرات في فلسفة القانون، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، السنة الثانية عشر، ١٩٦٢/١٩٦٣، العددان الأول والثانى، ص٢٠١

([٣]) المرجع السابق، ص ٢٠١

([4]) TOUCHARD (JEAN): edition universitaires de France, 2005, p802.

التاريخية في صراع الطبقات وتتجاهل وحدة الدولة التي تذيب الطبقات في حقيقة واحدة اقتصادية وأخلاقية إن شعلة حملة الفؤوس الفاسيو) هي رمز الوحدة والقوة والعدالة) [١].

كما أن موسوليني يرى أن الدولة هي حقيقة سابقة للأمة ومتفوقة التي تخلق الأمة، وهي التي تسمح لها بالتفتح وتنتهي الفاشية إذن إلى تمجيد الدولة التي هي وسيلة الأقوياء وضمان الضعفاء أي أن فكرة أولوية الدولة وفكرة وحدة الدولة مرتبطان تماما[٢].

كانت إيطاليا الموسولينية هي الحقل الخصيب لهذه الفاشية القانونية حيث لم يعد من المتصور وجود القانون بعيداً عن فكرة الدولة. فهي وحدها دون غيرها التي تخلق القانون لأنها تمثل الإرادة الخلقية والعالمية، وقد يبدو من هذه الملامح اقتراب هذا التصوير من الواقعية القانونية. ولكن الواقعية القانونية ترى القانون من صناعة الدولة وتنظر إلى الدولة بوصفها جهاز تشريعي[٣].

القومية الاشتراكية في ألمانيا الهتلرية:

النظام النازي يطلق عليه في تاريخ الفكر الاجتماعي السياسي والقانوني «القومية الاشتراكية»، هذا الاصطلاح تأسس على أن الفكر النازي قائم على أساس تمجيد الأمة الألمانية على ما عداها من الأمم والشعوب[٤].

وتتبع هذه الفلسفة من أن فكرة الشعب الألماني تجمعه وحدة الجنس ويميزه تفوق الثقافة ومهمة الدولة تقتصر على توفير أسباب الحياة للشعب وحماية نقاء الجنس وصفائه[٥].

وهذا ما عبر عنه هتلر في كتاب «كفاحي الفصل الحادي عشر بعنوان الشعب والعنصر أو من قبل Alfred Rosenbery في «أسطورة القرن العشرين فالشعوب التي ترفض الاحتفاظ بنقاء عرقها ترفض بذات الوقت وحدة روحها. إن خسارة نقاء الدم يحطم السيادة الداخلية وينحدر بالإنسان دائماً وأبداً كما أن النتائج الجسدية والأخلاقية لا يمكن أن تتمحي[٦].

---

(١) نقلا عن IBID, p.٨٠٥

(2) IBID., p809 et suiv.

(٣) د/ شمس الدين الوكيل نظرات في فلسفة القانون، مرجع سابق، ص ٢٠١،٣٠١

(٤) د. فايز محمد حسين، فلسفة القانون بين العلمانية والشكلية والغائية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٩٠١.

(5) BRIMO (A): Le grand courants de la phiolophie du droit,Parice,p.186.

(٦) نقلا عن: 4) TOUCHARD (JEAN) :op.cit., p813)

يتضح من ذلك أن القومية الاشتراكية التي سادت في عهد هتلر استندت على جماعة الشعب الأصيلة، وهي وحدها الجديرة بالاعتبار أما الدولة وعلى خلاف الفاشستية فهي مجرد نظام شكلي مجرد.

ومن الطبيعي أن يبتعد هذا النظام عن الواقعية القانونية التي تؤمن بتأسيس القانون على إرادة الدولة بوصفها سلطة تشريع. بل وأن الفقهاء الألمان في هذه الآونة نادوا بتحرير القانون الألماني من الآثار الرومانية التي علقت به وقالوا بالقانون الألماني الشعبي والقومي المرتبط بالتقاليد العرفية والمستقى من المصادر المعنوية للأمة دون غيرها[١].

وحري بالذكر أن أثر الداروينية الاجتماعية امتد تأثيره إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت إحدى الدعائم الرئيسية للإمبريالية.

ولقد أكد تيو در روزفلت (١٨٥٩-١٩١٩) - والذي كان رئيسا للولايات المتحدة ١٩٠١ ١٩٠٨ على الإمبريالية البيولوجية القائمة على تفوق الأنجلوسكسونية في مجلة الحياة الصعبة The Strenuous Life أنه يوجد قومية عرقية كما توجد قومية بلدانية[٢].

---

(١) راجع في ذلك: د/ شمس الدين الوكيل نظرات في فلسفة القانون، مرجع سابق، ص ٤٠١.

(2) TOUCHARD (JEAN): op.cit., p807.

المطلب الثانى

بيولوجيا التطور الدولى

سوف نتناول هذا المطلب من خلال فرعين، وذلك على النحو التالى:

الفرع الأول: الداروينية والأخلاق التطورية

الفرع الثانى: الداروينية الاجتماعية الدولية

الفرع الأول

الداروينية والأخلاق التطورية

إن نظرية التطور هزت الوجود الإنساني نفسه، فقد اكتشف الإنسان أنه ليس أفضل المخلوقات كما كان يتصور، وإنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا عن طريق التعلم ومن خلال المجتمع والحضارة فلهذا هو قابل للتغيير والتطور شأنه شأن الأشياء والمخلوقات الأخرى المحيطة به. وهذا أدى بدوره إلى حدوث تغيير في طبيعة الأخلاق ودورها في ذلك الوقت. فقد كانت وجهة النظر المستمدة من الدين تسعى إلى تأكيد أن النظام الأخلاقي شأنه في ذلك شأن القوانين الأخرى التي جاءت من السماء غير قابلة للنقاش ولا التغيير، وعلى الأفراد أن يطيعوها لأنها بعثت لهم بشكل قاطع[١].

ولكن مع نظرية التطور بدت الأخلاقيات مقلقة، وخاصة بعد أن فسرت تفسيراً حرفياً (ممكن إدراج الداروينية الاجتماعية ضمن هذه الفئة). فلقد اعتقد أن المسار التطوري للعالم الطبيعي قد جاء بنموذج واضح للسلوك الإنساني، ورثى أن مبادئ السلوك التي يتعين أن تتحكم في المعاملات الإنسانية قد تجلت واضحة في الطبيعة بفضل قانون البقاء للأنسب.

كما تكشف الغاية الجامعة للحياة من اندفاع الطبيعة نحو تثبيت الوجود في أشكال متدرجة في الارتقاء، ووصف بالخير أي شيء يساعد على تحقيق بقاء الأشكال الأفضل، والأكثر تركيباً في الحياة. كما وصف إلى ما يعوق الارتقاء التطوري على أنه شر.[٢]

واستغل هذه النظرية شيوخ المنسر أو ملوك الصناعة في القرن التاسع عشر لتبرير شتى أنواع الاستغلال، ومنها تخفيض الأجور وإعطاء الحكومات الكثير من الامتيازات، واستندوا في هذا الشأن على حجة أهليتهم للنجاح بحكم نجاحهم في جمع المال.

---

(١) ناهد البقصمي، الهندسة الوراثية والأخلاق، الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٣، ص ٣٧.

(٢) بيرتون – بورتر، الحياة الكريمة، ج٢، مرجع سابق، ص ٠٧

فلقد أثبت ذلك أنهم أكثر ألمعية وقوة وأقدر من الآخرين، وبذلك استحقوا الثراء والمركز الاجتماعي، واستناداً إلى نفس المبدأ، فإن من أخفقوا قد كشفوا عن عدم جدارتهم بالنجاح، وفسرت حطة مكانتهم إلى أسباب تطورية، كما تبين من حياة هكسلي أنه من الميسور استعمال العلم الداروينى في خدمة نظريات أخلاقية بعيدة،الاختلاف وقرابة نهاية حياة هكسلي عكس موقفه وقال إن الإنسان قادر على تطوير سنة أخلاقية سامية إذا اكتفى بمحاربة حركة الكون بأن يعلي ذاته بطريقة جائرة حتى لو أدى هذا إلى سحق كل المتنافسين، وبعبارة أخرى دافع هكسلي عن تطور الأخلاق بدلا من أخلاقيات التطور(١).

كما أن كليفورد (العالم الرياضي والفيلسوف اللامع) من الشباب الذي اكتسحته – وهو مازال يدرس فى الجامعة اعتقد أن الانتقاء الطبيعي هو المفتاح الرئيسي للكون»، وعندما استعمل هذا المفتاح في عالم الأخلاق اكتشف أن أصول الحق والباطل والضمير» ليست في الدين، ولكنها في التطور القبائلي، فلقد اتفق كليفورد هو وداروِن (وكان كليفورد قد قرأ الفصلين الثاني والثالث من كتاب أصل الإنسان على أن تصورات البشرية الأخلاقية ذات أصل اجتماعي وليس أصلا فرديا.. كما عني كليفورد أيضا بيان تفوق الأخلاقيات التطورية على الأخلاقيات الدينية. فبينما قامت الأخلاقيات الدينية بهدم أسس الوطنية، والأمانة الفكرية. أكدت الأخلاقيات التطورية دور الغريزة الاجتماعية التي هى مصدر الفعل الفاضل(٢).

ولقد حاول سبنسر أن يعيد صياغة المذهب النفعي بأن يحل محل النفعية التجريبية النفعية العقلية. فهو يقبل المبدأ التقليدي للفلسفة الانجليزية الذي يؤكد بأن المنفعة هدف النشاط الإنساني وأساس الأخلاق. ولكنه لا يضفي على النفعية معنى اللذة وإنما يضفي عليها معنى بيولجياً. فهو لا يعتبر اللذة إحساساً موضوعياً، ولا يقر مبدأ بنتام في حساب اللذات، ولا بالقدرة المتأصلة في الإنسان كما يذهب جون ستيورات مل ولكنه يأخذ بالتعادل البيولجي بين ظروف الفرد والظروف المحيطة به وبهذا ارتبط سبنسر بدارون(٣).

---

(١) فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، ج ٣، مرجع سابق، ص ٣١١

(٢) انظر في ذلك المعنى:

-BREHIER (EMILE): Histoire de La philosophie, tomell, La philosophie moderne,4 Le xix siècle Apr es 1850 Le XXe siècle. Index général, Paris ,1968,p.809.

(3) VECCHIO (GIORGIO DEL): op.cit., p.195.

وأدى إيمان سبنسر بنظرية التطور، واعتقاده في حرية التجارة وعدم تدخل الدولة في شئون الأفراد إلى موقف رجعي بالنسبة للإصلاح التشريعي. فقد تمسك بأن جميع المحاولات التشريعية الواعية والهادفة لإصلاح التنظيمات القوانين الاجتماعية نصيبها الفشل، وإن على الفرد أن ينتظر إلى الوقت الذي تتطور فيه تلقائياً[١].

ونرى في مجال علاقة المنهج التجريبي الخالص لدارون بالأخلاق – أن الأمر لا يقتصر على وجود اختلاف من ناحية المنهج فالعلم وصفية تفسيرية بينما تعني الأخلاق بالتقييم والتشخيص وهو عالم أكثر خفاء. فالأخلاق لا تهتم بتحديد ماهية حالات الأشياء موضع البحث بقدر الفعلية وإنما بأحكام القيمة. اهتماماتها بما ينبغي أن تكون عليه هذه الحالات أي ليس بنطاق الأحكام الفعلية وإنما أحكام القيمة.

ويذهب رأي أن هناك علمانيتين لا علمانية واحدة : الأولى جزئية ويعني بها العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة، والثانية شاملة ولا تعني فصل الدين عن الدولة وحسب، وإنما فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية الدولة. وحسب وإنما عن الطبيعة وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص، بحيث تُنزع القداسة عن العالم، ويتحول إلى مادة استعمالية، يمكن توظيفها لصالح الأقوى[٢].

ولقد ساهمت الداروينية في مواصلة النزاع بين العلم والدين، ويرجع السبب في ذلك أن الداروينية اقترحت إعادة طرح السؤال الغير محتمل للحقيقة السماوية والتي شكلت عقيدة راسخة للأجناس ودور الخالق بالنسبة للخلق. وكان الموقف المدافع للكنائس وتبيان دورها هو ما أدى إلى رفض تقليدي لنظرية التطور[٣].

كما أن أنصار أيدلوجية التقدم L'idéologie du progress والتي عرفت بمذهب التنويريين Les Lumieres ساهموا في علمنة كل نواحي الحياة البشرية والفكر الإنساني والتي تشير بالضرورة

---

(١) دياس، فلسفة القانون أشهر مذاهب الفلسفة عن القانون، مرجع سابق، ص ٥٥٧

(٢) د/ عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مجلداً، القاخرة، دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٦٧ انظر أيضا بشأن الحالة الأمريكية والرفض البروتستانتي للداروينية

-LECOURT (DOMINIQUE): L'Amerique entre La Bible et Darwin puf, 1998.

(3) (GOURDON (VINCENT) ET DES AU TRES: Histoire Religieuse, XVI-XIXe siècle,.p.169.

نحو مزيد من التقدم فلقد أبرزوا ملامح العصر الجديد المتفق مع الروح العلمية، والمنهج التجريبي. فالحضارة الأوربية تسترد في هذا المذهب حداثتها كما أن العلم غذي إجراء العلمانية[١].

والواقع أن ثمة موقفين من نظرية التقدم الأول: ما ذكرنا آنفا فكرة والواقع تراجعية في تفسير أحداث الماضي. أن التاريخ الماضي يمثل قوى عمياء وقوى اللامعقول، ويتجلى هذا الموقف عند فولتير، ومونتسكيو والموقف الثاني: «فكرة مستقبلية» تتطلع إلى الأمام على أمل سيطرة العقل على النشاط البشري، ويتجلى هذا عند كوندرسيه، لأنه يؤمن بأن العقل يسيطر على هذه الحركة[٢].

ويرى د. عبد الوهاب المسيري أن النظرية الداروينية الاجتماعية أهم الفلسفات العلمانية الشاملة كما أنها النموذج المعرفي الكامن وراء معظم الفلسفات العلمانية الشاملة أن لم يكن ورائها جميعاً.

وذهب دعاة الداروينية أن فرض دارون هو في واقع الأمر نظرية وحقيقة علمية ثم نقلوا هذا الفرض من عالم الطبيعة إلى عالم الإنسان وقرروا أن العلاقة بين الكائنات الحية في الطبيعة لا تختلف العلاقات بين الأفراد داخل المجتمعات الإنسانية ولا عن العلاقات بين المجتمعات والدول وعلى هذا لم يستخدم نموذج الداروينية لتفسير الطبيعة المادة فقط، وإنما لتفسير حياة الفرد في المجتمعات وتفسير العلاقات بين الدول والمجتمعات على المستوى الدولي. [٣]

كما أن الفكر الصهيوني مثل الفكر النازي ترجمة للرؤية الداروينية. فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم المطلقة التي تجب حقوق الآخرين، كما أنهم جاءوا إلى فلسطين ممثلين للحضارة الأوربية حاملين عبء الرجل الأبيض، وهم نظراً لقوتهم العسكرية ذو مقدرة أعلى على البقاء أي أنهم جاءوا من الغرب مسلحين بمدفعية إيدلوجية وعسكرية داروينية علمانية شاملة ثقيلة، وقاموا بتسوية الأمور من خلال الوضع الداروينى النيتشوي فذبحوا الفلسطينين، وهدموا قراهم واستولوا على أراضيهم، وهي أمور شرعية تماما من منظور داروينى علماني شامل بل من واجبه[٤].

([1]) GOURDON (VINCENT)ET DES AUTRES: op.cit.,p.164.

([٢]) د/ محمد الجبر، قضايا معاصرة في مشكلات الفكر والأخلاق (سوريا – دمشق: دار علاء الدين للنشر، ط١، ٢٠٠٣) ص٩٤.

([٣]) د عبد الوهاب المسيري، مرجع سابق مجلد١، ص ١١١ مجلد ٢، ص٢٦، ٣٦، ٤٦.

([٤]) المرجع السابق، مجلد٢، ص٩٩

الفرع الثانى
الداروينية الاجتماعية الدولية

ترد هذه النظرية العدوان وكل عوامل العنف والصراع في العلاقات الدولية إلى عوامل بيولوجية[١] بحتة وهي تنقل إلى ميدان العلاقات الدولية أفكار داروين عن الاصطفاء الطبيعي والتنافس الحيوي والتطور الذي قامت عليه نظريته، حيث اهتم داروين بالتنوع الذي يعتري السلالات الحيوانية والقوانين التي تحكم نظام حياتها وآلية تعاملها والصراع المدفوع بغريزة البقاء وما ينجم عنه من انتصار للأقوى ومن هذه الأفكار تأسست هذه النظرية التي ترد العدوان الدولي إلى عوامل الصراع من أجل الوجود ومفهوم البقاء للأصلح، فالدول وفقاً لهذه النظرية شأنها شأن الكائنات الحية تنمو وتتطور من خلال عملية الصراع أو المنافسة وبحيث يكون البقاء في النهاية للأقوى.

وتعتبر هذه النظرية أن الحرب والعدوان هي ظاهرة طبيعية بل أنها حتمية بيولوجية إذ أنها قانون ثابت أزلي من القوانين التي تحكم تطور الكائنات الحية بل أن العدوان وفقاً لهذه النظرية وكل أشكال الحرب والصراع تمثل (الشكل الأساسي لتطور المجتمع البشري) كما عبر عن ذلك الفيلسوف النمساوي G.Ratzemhofer الذي أكد على – القيمة الاجتماعية للعنف[٢] ذلك أن الداروينيون ينظرون إلى الحرب المتبادلة على أنها ضرورة قاسية لتقدم الحضارة وتطورها بل أنها تؤدي وظيفة هامة وضرورية ألا وهي نقل مقاليد القوة من الدول الضعيفة. التي دخلت طور التحلل والاضمحلال إلى الدول الأوفر قوة والأكثر ديناميكية[٣].

ولفهم سبب العدوان ودوافعه وفقاً لهذه النظرية فإنني أشير هنا إلى أنهم كانوا يعتبرون أن العلاقات الدولية تظل محكومة بقانونين أو قاعدتين أساسيتين وحتميتين هما الصراع من أجل البقاء من جهة وتفاوت الأعراق والأجناس من جهة أخرى، وكل واحدة من هاتين القاعدتين تؤدي بالمحصلة إلى ارتكاب العدوان وانتشار الحروب والصراعات.

---

(١) البيولوجيا هى كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين وهما – بيوس – أي حياة و – لوغوس – أي كلام ومعناهما علم الحياة وهو علم يبحث في الحياة المنبثة في سائر الأجسام الحية من نبات وحيوان وإنسان وغرضه استقراء البيولوجيا هي. مظاهره المتباينة وعرض جميع آثارها على الأحياء المختلفة توصلاً لاستقصاء نواميسها والإشراف على أسرارها.

(٢) ف. دينيوف – نظريات العنف في الصراع الأيديولوجي – مرجع سابق – ص ١٠٥

(٣) د. إسماعيل صبري مقلد – نظريات السياسة الدولية – مرجع سابق – ص ٢٤٩

فالصراع من أجل البقاء (وهو نقل لنظرية Darwin من مجال التطور للكائنات الحية إلى مجال المجتمعات الإنسانية) تعتبر أن الكفاح والقتال من أجل الوجود والبقاء هو حتمية بيولوجية وبمقتضاه لا يظل إلا الأصلح والأقدر على الكفاح على حساب ما عداه[١].

وقد آمن بهذه الفكرة وتبناها – كما سبق أن ذكرنا – هتلر الذي عبر عنها بقوله أن (الدولة كيان تكون نتيجة لغريزة بقاء النوع، وتتمثل الغريزة الصحيحة لبقاء النوع في الجهود المبذولة لضمان توازن صحيح بين السكان وبين المجال الحيوي) [٢] وبالطبع فإن الوصول لهذا التوازن المطلوب لن يتم بالأسلوب الودي وبالطرق السلمية والرضائية طالما أن الشعوب تزداد وتنمو فيما يظل الإقليم أو المجال الحيوي في حالة ثبات مما يهدده بالفناء لذلك فإن العدوان بصيغة الحرب للتوسع ستكون هي الحل الحتمي الذي ستفرضه غريزة البقاء والصراع من أجل الوجود وعندئذ فإن الحروب ستنشب والحدود ستتغير وستزول لأن الطبيعة.

ووفقاً لرأي هتلر – (.. لا تعرف معنى الحدود السياسية فهي تضع الكائنات الحية في هذا الكون وتراقب التفاعل الحر الذي يحدث بينها كلها وبعدها تمنح للأقوى فيهم حق التفوق والسيطرة..)، ولذلك فقد آمن دعاة هذه النظرية أنه من المستحيل إنهاء العداء والعنف بين الأمم والشعوب لأن عمل الحتمية البيولوجية وقانون الاصطفاء الطبيعي وصراع البقاء يفترض تصادم المصالح وهو لا يمكن أن ينتهي أبداً لأن هذا يعني نهاية تطور المدينة فالحتمية تتمثل فقط وفقاً لهذه النظرية في الأوضاع المتناقضة والصراع بين الأفراد والجماعات وبناء المجتمع يستمر فقط بفضل هذا الصراع والصدام المتواصل على كافة المستويات[٣].

وبالنسبة لتفاوت الأعراق والأجناس فإن هذه النظرية تنقل فكرة الصراع من أجل الحياة من مجالها الفردي إلى المجال الجماعي فهي ترى في الكفاح بين الأجناس الدنيا والأجناس العليا الصورة الرئيسية للصراع السياسي، حيث أنها تقسم الأجناس إلى نوعين فترى أن ثمة أجناس مهيأة بيولوجياً للأمر والسيطرة كما أن ثمة أجناس أخرى بيولوجيتها ليست صالحة إلا لأن تطيع إلا أن هذه الأجناس الأخيرة الأدنى والخاضعة لا تقبل الاعتراف بهذه الحقيقة ولا تخضع لها تلقائياً وسلمياً الأمر الذي يؤدي للصراع بين الأجناس العليا والأجناس الدنيا، وطالما أن البقاء للأقوى فإنه لا يجوز – وفقاً لهذه النظرية – الدول والشعوب الضعيفة أن تنازع الدول القوية في مركزها الدولي بل

---

(١) د. محمد طه بدوي – د. ليلى أمين مرسي – مبادئ العلوم السياسية – مرجع سابق – ص ١٩٦.

(٢) مشكلات الحرب والسلام – مرجع سابق – ص ١٣٢.

(٣) ف. دينيوف – نظريات العنف في الصراع الأيديولوجي – مرجع سابق – ص ١٠٥

أنه من الطبيعي أن تبادر الدول القوية بإخضاع الدول الضعيفة لسيطرتها لأنه لا يجوز للدول القوية والأجناس المتفوقة أن تتنازل عن حقها في السيطرة والقيادة وضم أراضي جديدة لها وإلا فإنها تكون قد نقلت مركز قيادة العالم إلى الأجناس المتخلفة والبدائية مع كل ما يعنيه ذلك من خطر يطال الجميع، وصراع الأجناس هذا من أجل السيطرة والسلطة – ووفقاً لرأي عالم الاجتماع النمساوي L.Gumplo هو المبدأ الدافع إلى الأمام وعلى وجه التحديد– هو القوة المحركة للتاريخ[١].

وكان من الطبيعي أن يتبنى الفكر النازي هذه النظرية ويؤسس عليها عقيدته طالما أن الصراع من أجل البقاء سيؤدي إلى تفوق الجنس الآري وانتصاره وتوسيعه للمجال الحيوي الألماني على حساب الشعوب الأخرى ولهذا فقد رفع النظام النازي الدعاوى المتعلقة بسمو ورقي الجنس الآري الذي ينتسب إليه الشعب الألماني ونسب إليه كافة المنجزات الحضارية[٢] ومن ثم كانت الدعوة إلى إبقاء هذا العنصر نقياً بعيداً عن الاختلاط بالأجناس الأخرى الأقل مرتبة،وقيمة كما كانت الدعوة أيضا لكي يسود هذا العنصر ويحكم غيره من الشعوب والأجناس[٣] وهو ما لن يتم إلا بالحروب والعدوان الذي بشرت به هذه النظرية اعتبرته ضرورة حتمية وقانوناً طبيعياً أساسياً Basic Law of Nature لا بديل له ولا هروب منه، بل أن هذه النظرية لا ترى في القانون الدولي والدبلوماسي إلا أدوات لصالح الأفضل والأقوى على حساب الأدنى والأضعف[٤].

ولهذا فمن الطبيعي أن نرفض هذه النظرية المروجة للعدوان والتي تدعونا في النهاية إلى أن نتألف معه ونقبل به ونخضع له وكأنه حتمية قدرية لا مناص منها.

---

(١) ف. دينيوف – نظريات العنف في الصراع الأيديولوجي – مرجع سابق – ص ١٠٥.

(٢) وهو ما عبر عنه هتلر بقوله (إن كل ما نراه حولنا اليوم من ثقافة إنسانية ومن نتاج الفن والعلم والتقنية هو النتاج الخلاق للجنس الآري) وقد كتب هتلر أن قوانين البيولوجيا قد أوجدت ثلاثة أجناس أو أنواع متميزة من البشر – مبدعو الثقافة وروادها المبتكرون – وهم أبناء الجنس الآري و منتجو الثقافة وناشروها . وهم اليابانيون وأخرون – ومدمرو الثقافة – وهم اليهود.. وأشار إلى الجنس الآري المتفوق يواجه أخطار ثلاثة أعداء متربصين به: الماركسيين والسلافيين واليهود راجع في هذا:

فؤاد شاكر – حصاد القرن العشرين – رجال صاغوا القرن – منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ٢٠٠١ – ص ١٣٠

(٣) راجع في هذا:

عبد الناصر حريز – النظام السياسي الإرهابي الإسرائيلي – دراسة مقارنة مع النازية والفاشية والنظام العنصري في جنوب أفريقيا – منشورات مكتبة مدبولي، القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٩٧ – ص ٨٢.

(٤) د. إسماعيل صبري مقلد – نظريات السياسة الدولية – مرجع سابق – ص ٢٥٠.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن العقيدة الصهيونية قد تبنت أيضاً ذات الأسس والمبادئ التي تقوم عليها هذه النظرية حيث يرتكز النظام السياسي الصهيوني في دعواه العنصرية إلى مقولة أن اليهود يمثلون أمة واحدة وشعباً متميز ومؤهل القيادة البشرية وأنه شعب الله المختار الذي تعزى إليه كافة المنجزات الإنسانية وتعود إلى جهده كافة الحضارات البشرية (ولعل آخرها ما تروجه الآلة الدعائية الصهيونية حول دور اليهود في بناء الأهرامات وأنهم أساس ومصدر تلك الحضارة) وان الشعوب الأخرى أدنى منه درجة وأحط منه مرتبة، ولذلك تبنت العقيدة الصهيونية مفهومي الوظيفة القيادية والدولة المسيطرة أي حق النظام الصهيوني في قيادة وتوجيه سائر الشعوب الأخرى والتوجه إليها بحضارته عبر أساليب السيطرة والهيمنة ولتحقيق هذا الغرض لابد من أن تكون دولتهم مسيطرة وذات فعالية وسلطة وتأثير على ما عداها من الدول ومن ثم يكون لها الحق في استخدام كافة الوسائل للنهوض بمهام الوظيفة القيادية بما في ذلك وسائل القهر والإجبار والتوسع والسيطرة عن طريق العدوان[1].

([1]) عبد الناصر حريز، النظام السياسي الإرهابي الإسرائيلي – مرجع سابق – ص ١٥٤ . أيضاً ص١٧٠. د. محمد جلاء إدريس – فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي – مركز الدراسات الشرقية – جامعة القاهرة – سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية – ٢٠٠١ – ص ٥٣ وما بعدها، وأيضاً ص ٢١٦. روجيه غارودي – الخرافات المؤسسة للسياسات الإسرائيلية – نقله إلى العربية م. ع. كيلاني – منشورات دار الكاتب – دمشق سورية – الطبعة الأولى – ١٩٩٦ – ص ٣٧ – ٤٥

الخاتمة:

تناولت الدراسة موضوع النظرية الداروينية في تأصيل فكرة العدوان، ولقد قسمت الدراسة إلى مبحثين: الأول وعنوانه الأصول التاريخية للعدوان ومفهوم النظرية الداروينية، وذلك من خلال مطلبين: الأول جاء بعنوان الأصول التاريخية للعدوان في الفكر القانوني القديم (فرع أول) وموقف الشرائع الدينية من العدوان (فرع ثان) وتناولت فى المطلب الثانى مفهوم النظرية الداروينية، وذلك من خلال فرعين (الأول) مدلول النظرية الداروينية، و(الثانى) أهم المضامين الفلسفية للنظرية الداروينية.

أما المبحث الثانى فقد جاء بعنوان: مدى تأثير النظرية الداروينية على فكرة العدوان فى مطلبين، (الأول) مدى تأثير النظرية الداروينية على الواقعية السياسية (فرع أول) ومدى تأثير النظرية الداروينية على الواقعية الاستبدادية (فرع ثان)، وتناولت فى المطلب الثانى بيولوجيا التطور الدولى، وذلك من خلال فرعين: الداروينية الاجتماعية والأخلاق التطورية (فرع أول)، الداروينية الاجتماعية الدولية (فرع ثان)

النتائج:

- إن المجتمعات القديمة وحتى بزوغ نور الشراع الدينية وظهور الدول كانت قد عرفت ظاهرة العدوان.
- كانت منجزات الداروينية تلاقى بين حين وآخر النقد والتنديد؛ وذلك لأن الكثيرين لم ترقَ لهم الداروينية فلسفة ونظرية.
- النظرة التطورية للمجتمع، وقد رأينا أنه فى مجال الفلسفة والقانون والسياسة غدا ينظر إليه على أنه مجال الصيرورة، وهو الأمر الذى دعم بزوغ الروح التاريخية للقرن التاسع عشر.
- فكرة الكيان العضوى الاجتماعى تعنى النظرة إلى السياسة على غرار الكائن العضوى البيولوجى، وهو الأمر الذى وجدنا تطبيقًا له بصفة خاصة فى القومية الألمانية، كما أن الفكرة ذاتها – الكيان العضوى الاجتماعى – كانت تحمل فى طياتها الاعتقاد بالتفاوت اللاإنسانى.
- إن فكرة الصراع راج سوقها عن طريق الداروينية الاجتماعية التى اعتبرت الحرب حالة خاصة من حالات الصراع.

التوصيات:

- ضرورة الاهتمام بعلم الاجتماع القانونى، فتحليل كثير من موضوعات علم الاجتماع قد تكون بعيدة عن القانون، ولكن كثيرًا من هذه الموضوعات تربط القانون مرة أخرى.
- حتمية العلاقة المتبادلة بين علم الاجتماع والقانون وإثراء الدراسات التى تبين العلاقة بين علم الاجتماع والقانون والتى تزايدت بتطور الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع ليحدث ثورة علمية جديدة فى القانون.
- نوصى بدراسة مادة "السيسولوجيا التاريخية للقانون" فى مواد الدراسات المقررة بكليات الحقوق لتوسيع أفق الطلاب والباحثين فى هذا المجال.
- أنه قد حان الوقت للمزيد من الدراسات للقانون من الخارج، فإذا كان القانون يدرس القاعدة القانونية كقاعدة من الداخل، فإن علم الاجتماع القانونى يدرس القانون كظاهرة متصلة بالظواهر الأخرى.

المراجع:

المراجع باللغة العربية:

أولا- الكتب:

- احسان الهندي، أحكام الحرب والسلام في دولة الاسلام – الطبعة الأولى – منشورات دار النمير دمشق سورية – ١٩٩٣.
- أحمد فؤاد رسلان، نظرية الصراع الدولي، دراسة فى تطور الأسرة الدولية المعاصرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.
- إسماعيل صبري مقلد – نظريات السياسة الدولية – جامعة الكويت – الطبعة الأولى ١٩٨٢.
- آمنون روبنشتاين – لنكن شعباً حراً.، ١٩٧٠
- ثروت أنيس الأسيوطي، نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها (دراسة في سوسيولجيا الفكر القانوني) (القاهرة: مطبعة جامعة عين شمس (١٩٦٧)
- جاستون بوتول الحرب والمجتمع، تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية، ترجمة / عباس الشربيي مراجعة وتقديم د. محمد علي محمد (بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٣)
- جاكوب برونوفسكي، التطور الحضاري للإنسان (ارتقاء الإنسان)، ترجمة د/ أحمد مستجير (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب الأعمال الفكرية مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ١٩٩٧)
- جرج- كاشمان، لماذا تنشب الحروب؟، ترجمة د/ أحمد حمدي محمود،القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني ٢٤٢ الجزء الأول، ١٩٩٦.
- جمال حمدان – استراتيجية الاستعمال والتحرير – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – الطبعة الثانية ٢٠٠٠.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، ط ١، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٧٣.
- جهاد عودة وآخرين، العلاقات الدولية (القاهرة: مطبعة التقوى ٢٠٠٤)
- جون باول – الفكر السياسي الغربي – ترجمة محمد رشاد خميس – مراجعة د. راشد البراوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٥.
- حازم محمد عتلم، قانون النزاعات المسلحة الدولية، المدخل – النطاق الزماني – الطبعة الأولى، دون ناشر – القاهرة ١٩٩٤.

- الحروب والحضارات – تأليف مدرسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب – إصدار المؤسسة الفرنسية لدراسة الدفاع الوطني – ترجمة أحمد عبد الكريم – منشورات دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق – سوريا.
- حسن ظاظا – الفكر الديني في اسرائيل أطواره ومذاهبه – الناشر مكتبة سعيد رأفت – القاهرة – ١٩٧٥.
- دياس فلسفة القانون، أشهر مذاهب الفلسفة عن القانون الوضعية – النظرية البحتة – التاريخية، ترجمة هنري رياض مراجعة عبد العزيز صفوت (بيروت – دار الجيل – دون تاريخ.
- روجيه غارودي – الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية – ترجمة محمد هشام الطبعة الأولى – منشورات دار الشروق القاهرة ١٩٩٨.
- روجيه غارودي – الخرافات المؤسسة للسياسات الإسرائيلية – نقله إلى العربية م. ع. كيلاني – منشورات دار الكاتب – دمشق سورية – الطبعة الأولى – ١٩٩٦.
- سيد أحمد علي الناصري – الحرب والمجتمع القديم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ٢٠٠٠.
- السيد العربي حسن، القانون والمجتمع، مدخل إلى علم الاجتماع القانوني عند ماكس فيبر (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٥).
- الشيخ محمد أبو زهرة – نظرة الاسلام إلى الحرب – المجلة المصرية للقانون الدولي.
- الشيخ محمود شلتوت – الاسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب – دون رقم طبعة – مكتبة شيخ الأزهر للشئون العامة – القاهرة ١٩٥١.
- صلاح الدين أحمد حمدي، العدوان في ضوء القانون الدولي، الطبعة الأولى – المكتبة الوطنية – بغداد – العراق ١٩٨٦.
- صلاح الدين عامر – مقدمة لدراسة قانون النزاعات المسلحة – دار الفكر العربي – الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٦.
- عادل محمد المصري، النشوء والتطور فى الكائنات الحية، الإسكندرية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ٢٠٠٢.
- عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، دون تاريخ نشر).
- عبد الناصر حريز – الإرهاب السياسي – مكتبة مدبولي – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٩٦.

- عبد الناصر حريز – النظام السياسي الإرهابي الإسرائيلي – دراسة مقارنة مع النازية والفاشية والنظام العنصري في جنوب أفريقيا – منشورات مكتبة مدبولي، القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٩٧.
- عبد الواحد محمد الفقار – الجرائم الدولية وسلطة العقاب عليها – دون رقم الطبعة – دار النهضة العربية القاهرة – ١٩٩٥.
- عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مجلداً، القاخرة، دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٢
- ف ديبوف – نظريات الملف في الصراع الأيديولوجي – ترجمة: د. سحر سعيد – دار دمشق للطباعة والنشر – سوريا – الطبعة الأولى – ١٩٨٢.
- فاروق يوسف أحمد، قواعد علم السياسة، اقتراب غير تقليدي من الظاهرة السياسية (القاهرة: مكتبة عين شمس ٣ (١٩٨٨) انظر المرجع
- فاوستو انطونييني – عنف الإنسان أو العدوانية الجماعية – ترجمة نخلة فريفر – منشورات معهد الإنماء العربي – بيروت – لبنان – ١٩٨٩
- فايز محمد حسين، فلسفة القانون بين العلمانية والشكلية والغائية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٧.
- فراس سواح – الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم – دار علاء الدين – دمشق – الطبعة الثالثة ١٩٩٧.
- فرانكلين – ل – باومر، الفكر الأوربي الحديث، الاتصال والتغير فى الأفكار، القرن التاسع عشر، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى، ١٩٨٩.
- فؤاد شاكر – حصاد القرن العشرين – رجال صاغوا القرن – منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١.
- محمد أبو زهرة – العلاقات الدولية في الاسلام – دون رقم طبعة – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٤.
- محمد الجبر، قضايا معاصرة في مشكلات الفكر والأخلاق (سوريا – دمشق: دار علاء الدين للنشر، ط١، ٢٠٠٣)

- محمد جلاء إدريس – فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي – مركز الدراسات الشرقية – جامعة القاهرة – سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية رقم (١٨) – ١٤٢٢/٢٠٠١م.
- محمد جلاء إدريس – فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي – مركز الدراسات الشرقية – جامعة القاهرة – سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية – ٢٠٠١
- محمد عبد الله الشرقاوي – في مقارنة الأديان – الطبعة الثانية – الناشر دار الجليل بيروت – ١٩٩٠.
- ناهد البقصمي، الهندسة الوراثية والأخلاق، الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٣.
- نبيل السمالوطي الانثروبولوجيا الاجتماعية علم الإنسان. (الدقهلية دون ناشر، ٢٠٠٣)
- نصار عبد الله – نظرية الحرب العادلة – دون رقم طبعة – منشورات عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٣.
- نيفين جمعة علم الدين فلسفة التاريخ عند أرنولد توبيني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩١).

ثانيًا– الرسائل العلمية:

- محمد عبد المنعم عبد الخالق – الجرائم الدولية – دراسة تأصيلية للجرائم ضد الإنسانية والسلام وجرائكم الحرب، رسالة دكتوراه منشورة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٩.
- يحي الشيمي علي – مبدأ تحريم الحروب في العلاقات الدولية – رسالة دكتوراه – كلية الحقوق – جامعة القاهرة ١٩٧٦.

ثالثًا: المجلات والدوريات والمقالات:

- رشاد عبد الله الشامي، القوى الدينية فى اسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة – سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٦ – تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – حزيران – يونيو ١٩٩٤.
- ثروت أنيس الأسيوطي، عدالة السماء، مجلة القانون والاقتصاد، العدد الأول، الـ ٧٣ مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٧
- جوزيف روتيلات – المحاولات القديمة لإبطال الأسلحة النووية – بحث منشور ضمن كتاب عالم نظيف من السلاح النووي – تحرير فرانك بلاكباي – ترجمة أدهم السمان – الناشر دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق – سوريا – الطبعة الأولى ١٩٩٤.

- حامد سلطان – أحكام القانون الدولي في الشريعة الاسلامية – بحث ضمن مجموعة – التشريع لاسلامي والنظم القانونية الوضعية – صدر باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالشعبة القومية لليونسكو الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٨.
- حامد سلطان – الحرب في نطاق القانون الدولي – المجلة المصرية للقانون الدولي – العدد ٢٥ سنة ١٩٦٩.
- شمس الدين الوكيل نظرات في فلسفة القانون، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، السنة الثانية عشر، ١٩٦٢/١٩٦٣، العددان الأول والثانى.
- منير بدوي – تحليل الصراع الدولي – بحث منشور ضمن كتاب – اتجاهات حديثة في علم السياسة – تحرير د. علي الدين هلال الدسوقي – د محمود إسماعيل محمد – إصدار المجلس الأعلى للجامعات – اللجنة العلمية للعلوم السياسية والإدارة العامة – القاهرة ١٩٩١.

المراجع باللغة الأجنبية

- Alfred Zimmern; "The Greek Commanwealth – Politics and Economics in Fifth Century Athens' Oxford University Press (5th edition), 1961.
- ANTHONY (R.): La force et Le droit, librairie Felix Alcan., Paris, 1917.
- Bainton R.H: (Christion Studies Toward War and Peace, A Historical Survery and Critical Revolution), A Bing– don Press, New York, 1961.
- BATTISTELLA (DARIO): Théories des relations internationals 2e édition revue et augmentee, presses de la fondation national des sciences politiques, 2006.
- BAUDOUIN (JEAN): Introduction À La Science politique, édition Dalloz
- BREHIER (EMILE): Histoire de La philosophie, tomell, La philosophie moderne,4 Le xix siècle Apr es 1850 Le XXe siècle. Index général, Paris ,1968.
- BRIMO (A): Le grand courants de la phiolophie du droit,Parice,p.186.
- CAULLERY (MAURICE) ET DES AUTRES: L'évolotion EN Biologie, Paris, 1929.
- CLIPIN (ROBERT): The political Economy of International Relation, Princeton university press 1987.
- DARWIN(CHARLES): De L'origine des espèces, traduction de Royer (Glemenge), 3 édition, Paris, 1934.
- DELACAMPAGNE (CHRISTIAN): Une histoire du racisme, preface de Laure Adler, librairie générale française, 2000 Pour la présente éditio
- ESCOLA(PHILIPPE) ET DES AUTEES: Les idées de L'anthropologie AYMAND colin editeur, Paris, 1988, pp.157–158.
- EL FANDI(M.S): Les Principales conceptions de l'évolution, editeure, 1928.

- GOURDON (VINCENT) ET DES AU TRES: Histoire Religieuse, XVI-XIXe siècle.
- Hobbs. T.R: A Time for War A Study of Warfare in the Old Testament Wilimington, U.S.A., 1989pp. 148-149.
- HOTTOIS (GILBERT): De la renaissance à la postmodernité, une histoire de la philosophie moderne et contemporaine, 3o édition de Bocek & lacier
- LA CROIX(J.): Panorama de la philosophie Française contemporaine, presses Universitaires de France, 1966.
- LECOURT (DOMINIQUE): L'Amerique entre La Bible et Darwin puf, 1998.
- MITCHELL(P.CHALMERS):Le Darwinisme et La guerre, traduit de L'anglais par Maurice soldvine, Paris, 1916.
- MORGENTHAU(HANS): «Politics among Nations>> the struggle for pwer and peace>> Chapter one
  http// weber.ucsd.edu/mhiscox/240.htm
- POPPER (K.): the Poverty of historicism Routtedge and Kagan, poul-London, 1957.
- Quincy Wright: Analysis of the Causes of war, in Richard Falk & Samuel Mendiovitz, (eds), Toward A Theory of war Prevention, (world LawFund, New york), 1966.
- Robert Gilpin. War and Change in World Politics Cambridge, England: Canbridge University Press, 1981.
- Robert Gilpin. War and Change in World Politics Cambridge, England: Canbridge University Press, 1981.
- ROSTAND (JEAN): La Formation De L'être, histoire des idées sur la Génération, librairie Hachette, 1930.

- Russell (BERTRAND): the Scientific outlook, George Allan & Penwin, London, 1934.
- TOUCHARD (JEAN): edition universitaires de France, 2005, p802.
- VECCHIO (GIORGIO DEL): philosophiedroit, edition, Dalloz, 2009, p.192 - MAURY (LILIANE): Les emotions de Darwin À FREUD, presse universitaire de France, 1993.
- VILLEY (MICHEL): Philosophie du droit, Dalloz, 2001.,pp.236-237.
- Weinfield, M: Deuteronomy and the Deuteronomic School, Oxford, 1972.

مواقع الإنترنت

- http://pages.globetrotter.net/pcbcr/ prince.html
- http://pages.globetrotter.net/pcbcr/ prince.html.
- http://www.aspr.ac.at.Htm
- http://www.Finauadi Corell/edu/peace.program
- http://www.fund for.peace.org